الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمـــي
جامعـــة عباس لغرور – خنشلة –

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم: العلوم الاجتماعية
الشعبة: فلسفة
التخصص: فلسفة عامة

الرقم التسلسلي: ...../ك.ع.إج.إن/ ق ع إج/2024

النزعة الفوضوية عند بول فيرابند

مذكـــرة مكملة لنيـــل شهـــادة الماستـــر أكاديمي في شعبة الفلسفـــة

من إعداد الطالبة:
– رويجل سهام

تحت إشراف الأستاذ:
- هري علي

أعضاء لجنـــة المناقشـــة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة
فاطمة فرفودة	أستاذ محاضر –أ–	رئيسا
علي هري	أستاذ محاضر–ب–	مشرفا ومقررا
أمين زدك	أستاذ محاضر –أ–	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2024/2023

بسم ساتر العيوب وغافر الذنوب بسم الوحيد الذي جعل القلم يكتب واللسان ينطق أما بعد:

الحمد لله الذي بحمده يستفتح كل كتاب وبذكره يصدر كل خطاب الذي وفق لنشر المحاسن وطيها في أحسن كتاب، وجعل ذلك قرة لأعين الاحباب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا قلوب ذوي الألباب، وعلى آله الطيبين وجميع الأصحاب

رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقه قولي

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

«وقل اعملوا فيسرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

بداية أحمد الله العلي القدير على ما من علينا من علم متواضع وألهمنا قوة الصبر والتحمل لإعداد هذه الدراسة وتنفيذها، لأنه من باب "من لم يشكر الله لم يشكر الناس"

اللهم لك الحمد والشكر أنت الحكيم وحدك لا شريك لك وعلى كل شيء قدير أما بعد:

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى قدوتي ومثلي الأعلى الأستاذ:

✶هري علي✶

المشرف على هذه الدراسة الذي أغناها بملاحظاته وارشاداته وتوجيهاته القيمة والبناءة، واهتمامه الذي غمرنا به طيلة إنجاز هذا العمل، وإشرافه المتميز رغم كل التزاماته.

والذي لم يبخل علينا بنصائحه ووقته، سواء بالعمل أو بالكلمة الطيبة، إذ تفضل بمنحي شرف التلمذة على يده، وقبول الإشراف على هذا العمل المتواضع، فلنمطره بوابل من الإمتنان والشكر

كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى قدوتنا في الأخلاق والصرامة والتحصيل الدراسي، إلى من نطمح السير على منهاجها، إلى الأستاذة * فرفودة فاطمة *

وإلى كل من قتل الجهل في أنفسنا إلى كل أساتذة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية وخصوصا قسم العلوم الإجتماعية إلى: الأستاذة عمرون مليكة، الأستاذة ذيب حدة، الأستاذة نصيب، الأستاذ معطا الله أحمد،

الأستاذ نعموم الأستاذ زدك محمد الأمين، الأستاذ مولف طاهر، الأستاذ بركان، الأستاذ لخضاري، الأستاذ بروال ...

كما نتقدم بجزيل الشكر لمحافظة مكتبة كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية السيدة: "زعيمي سمرة" والتي قاسمتني ثمرة هذا الجهد وتحملت معي أعباءه منذ بداية المشوار الدراسي والتي كانت نعم الأخت ونعم الصديقة

وإلى جميع موظفي المكتبة، لكم مني كل الإحترام والتقدير

كما نتقدم بالشكر لأعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بمناقشة وتقييم محتوى هذه المذكرة

فشكرا لجميع من ساعدني ووقف بجانبي، ولو بابتسامة لكم جميعا مني جزيل الشكر وفائق الإحترام جزاكم الله عني خير الجزاء.

الإهـــداء

إننا في هذه الحياة على الأغلب ندين لكثير من الناس أقرباء كانوا أو أصدقاء بكثير من الخدمات، ولعل أصغر شيء يمكننا فعله من أجلهم هو شكرهم

إلى الذين قال فيهما الرحمان: «وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا» سورة الإسراء الآية 23

إلى الذي علمني أن الحياة كفاح، ووراء كل تعب نجاح، إلى من هو أعز من حياتي، إلى من فتح لي دروب العلم دون قيد، إلى الرجل الذي شجعني وأفهمني معنى الحياة وكرس حياته في تربيتي، إلى الذي عبر مشاق الحياة ليرفعني إلى أعلى المراتب

"أبي الغالي"

إلى التي بقلم حبها اجتهدت، وبفضل رعايتها نجحت، إلى صاحبة النبع الذي لا يختفي نوره والحب الذي لا ينقص عطاؤه، إلى هبة الرحمان وحواء هذا العالم، إلى التي حملت كياني بعطفها ولا تزال كالبحر تغمرني، إلى من كانت لي الأم والأخت والصديقة، إليك يا سيدة النساء "أمي الغالية"

إلى هبة الرحمن وسندي .... من أعطاني أملا وبعث في قلبي القوة وشجعني على هذه الخطوة "زوجي العزيز" فله مني كل التقدير والاحترام وإلى عائلته الكريمة،

إلى من حلت بركة وجوده في حياتي، ومن ملأت ضحكاته الجميلة عمري، إلى من أستمر بالتقدم لأجله ابني الغالي "محمد أمير"

إلى من وهبهم الله لي سند وسري وعزوتي في هذه الدنيا، شاركوني ظلمة الرحم تحلية بالإخاء وتميزوا بالعطاء لا تحلو اللحظات إلا معهم "إخوتي"

إلى من كانا سندا لي، وكان دائما بجانبي وسببا في مواصلة مشواري الدراسي "زوج أختي" لك مني كل الشكر والتقدير

إلى من قاسمتني ثمرة هذا الجهد، وتحملت معي أعباءه والتي كانت نعم الأخت، ونعم الصديقة "وداد" شكرا لك

وإلى خالي وخالاتي وجميع ابنائهم، وإلى كل الأهل والأقارب والأحباب

إلى زميلاتي وصديقاتي طلبة ماستر 1: آسيا بعزيز، عبير سعيدان، صفاء مرداسي، خولة مرغاد، صبرينة بن عربية، ريمة، هالة خمار، فرح تاوللیت ..... أتمنى لهم التوفيق في مشوارهم الدراسي

إلى جميع صديقاتي وزميلاتي في العمل بمدرسة بوكحيل لخميسي

إلى كل من عرفني، وإلى كل من حمل رسالتي هذه، وإلى كل من نسيهم القلم ولم ينساهم القلب أهدي هذا العمل راجية من المولى عز وجل التوفيق.

مقدمة

مقدمـــة:

لقد شهدت فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، تحولات جذرية، متأثرة بالتطورات العلمية السريعة والثورات العلمية الكبرى التي عرفها هذا العصر. هذه التحولات لم تقتصر على مجرد تقدم في المعرفة العلمية، بل طالت الأسس النظرية والمنهجية التي بني عليها العلم الكلاسيكي. لقد زعزعت الثورات العلمية (النسبية، الكوانتا) اليقينيات والمبادئ التي كانت تعتبر ثابتة ومطلقة، مما دفع بفلاسفة العلم إلى إعادة التفكير في العديد من المفاهيم الأساسية.

وفي هذا السياق، ظهر تيار جديد في الإبستمولوجيا المعاصرة، تميز بنزعة نقدية حادة تجاه كل ما هو مطلق وثابت في العلم. هذا التيار دفع الفلاسفة إلى التشكيك في الأسس التي كانت تُعتبر راسخة، وأدى إلى تطوير مقاربات جديدة لفهم العلم. ومن أبرز رواد هذا التيار، الفيلسوف "بول كارل فييرابند"*، الذي يعتبر واحدا من أكثر فلاسفة العلم نقداً للمنهج العلمي التقليدي.

إن "فيرابند" بنقده اللاذع للمنهج العلمي، طرح رؤية جديدة للعلم ومكانته في المجتمع، رفض الفكرة القائلة بأن للبحث العلمي منهجاً محدداً وثابتاً، وبدلاً من ذلك، دعا إلى تعددية منهجية، حيث يمكن استخدام مناهج مختلفة ومتناقضة أحياناً لإنجاز المعرفة العلمية. هذه الرؤية تُعرف بـ "الفوضوية الإبستيمولوجية" وهي نظرية ترى أن التمسك بمنهج علمي واحد قد يحد من الإبداع ويعوق التقدم العلمي.

هذا، ولم يقتصر نقد "فيرابند" على المنهج العلمي فقط، بل تناول أيضاً مكانة العلم نفسه وعلاقته بأشكال المعرفة الأخرى، مثل الدين والفلسفة والفن، جازما بأن العلم ليس فوق النقد، وأنه يجب أن يُعامل كنظام معرفي واحد بين عدة أنظمة معرفية

* بول فيرابند Paul Feyerabend(1924–1994): فيلسوف من أصل نمساوي، مختص في فلسفة العلوم وتاريخها، ولد في فينا عام 1924، ودرس في جامعتها ثم ارتحل إلى انجلترا ليتابع دروس "كارل بوبر"، ودرس بعد ذلك في جامعة باركلي (بكاليفورنيا)، عرف شهرة عالمية بكتابه "ضد المنهج"(1975)، الذي أرسى فيه الأساس لـ: ابستيمولوجيا فوضوية، ونقد بصرامة التجريبية الأنكلوساكسونية المعاصرة، ولم يستثني حتى عقلانية "بوبر". من مؤلفاته الأخرى: العلم في مجتمع حر، ثلاث محاورات في المعرفة...، انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006، ص454.

أخرى. هذا المنظور فتح الباب أمام نقاشات واسعة حول طبيعة العلم ودوره في المجتمع، وأدى إلى إعادة تقييم العديد من المسلمات العلمية والفلسفية.

إن رؤية "فيرابند" الفوضوية أثرت بشكل كبير على الفلسفة المعاصرة، حيث أثارت تساؤلات حول مدى صلاحية المناهج العلمية التقليدية في ظل التغيرات السريعة والمتلاحقة التي يشهدها العلم. هذه التغيرات تتطلب مرونة وتعددية في المناهج والأساليب، وهو ما دعا إليه "فيرابند" بقوة. هذه الأفكار لا تزال تثير جدلاً ونقاشاً إلى غاية اليوم، وتعتبر من أهم الإسهامات في فلسفة العلم المعاصرة، ومن هنا جاء اختيارنا له، –لما يكتسيه من أهمية– ولما أثاره من صخب وجدل، أقام الدنيا ولم يقعدها– لأن يكون موضوعا وعنوانا لمذكرة بحثنا الموسومة بـ(النزعة الفوضوية عند "بول فيرابند")، محاولين من خلالها الإجابة عن الإشكالية التالية:

* فيم تتمثل النزعة الفوضوية عند "بول فيرابند"؟ وماهي أبرز التصورات والأفكار الأساسية التي تقوم عليها مقاربته الفوضوية؟

إن معالجة هذه الإشكالية، يمكن تحقيقها انطلاقا من الإجابة عن الأسئلة ذات الصلة بها، والتي يمكن بلورتها كما يلي:

* ما هي الأرضيات المغذية لفكرة الفوضوية عند "بول فيرابند"؟ وما موقفه منها؟

* هل يمكن الحديث عن منهج واحد للعلم أم هناك بدائل منهجية أخرى؟

* كيف يمكن للتعددية، أو بالأحرى، للفوضوية التي يدافع عنها "فيرابند" أن تسهم في تقدم العلم والمعرفة؟

* فيم تكمن أبرز الأشكال المعرفية التي اعترف بها "فيرابند" إلى جانب المعرفة العلمية؟

* ما تداعيات المقاربة الفيرابندية على ساحة فلسفة العلم، خصوصا، وعلى الفكر والثقافة الإنسانية، عموما؟ وهل يمكن أن تفتح آفاقا جديدة للتفكير العلمي والفلسفي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اقترحت خطة تتضمن فصلين، وكانت البداية بمقدمة شملت الإطار العام للموضوع مع طرح الإشكالية، والإشارة إلى مختلف أطوار البحث: من منهج، وأسباب اختيار الموضوع، والأهداف المتوخاة من تناوله، ثم الوقوف مع ذكر الصعوبات التي واجهتنا في سبيل إنجازه، ثم الإحالة إلى أهم المصادر والمراجع المستخدمة في مذكرتنا، مع الإشارة إلى بعض الدراسات الأكاديمية السابقة.

وفيما يخص التحليل، فقد جاء في فصلين، الأول منهما، يحمل عنوان [الخلفيات المغذية للمشروع الفوضوي، وكيفية تفاعل "فيرابند" معها]، والذي تطرقنا فيه إلى مجموعة عناصر، بدأناها بـ النزعة النسبية عند اليونان (بروتاغوراس نموذجا)، ثم انتقلنا إلى الوضعية المنطقية، وسجاله معها، لنقف مع التكذيبية البوبرية، التي أشاد بها "فيرابند" في بداية احتضان "بوبر" له لينقلب عليها لاحقا، لنعرج بعد ذلك على الحركة الدادئية التي جذبته وأثرت فيه أيما تأثير، لنمضي نحو مقاربة لاكاتوس التي تجاوب معها "فيرابند" بحماس كبير من منطلق اعتقاده أن صاحبها يشاركه قناعته الفوضوية، فقط أنه لم يجرؤ على التصريح بها، بما جعله ينظر إليه بعين التقدير والاحترام، دون أن يعفياه من نقد مقاربته، لنختتم هذا الفصل بتناول باراديغمات "توماس كون" التي أولاها "فيرابند" تحليلا مستفيضا، ثمّن من خلاله، اهتمامها الواعي بتاريخ العلم، ليتوجه إليها بنقد قارض، معتبرا صاحبها من دعاة السلطوية والتسلط، طالما أنه يشدد على فكرة الباراديغم الوحيد والأوحد الذي يتحقق من خلاله، الإجماع (أي إجماع البحاثة العلميين).

أما الفصل الثاني الموسوم بـ[المقاربة الفوضوية عند "بول فيرابند"]، فقد تناولنا فيه جملة عناصر، مبتدئين بـ مناهضة المنهج، وفيه استعرضنا تهجمه على النظرية التقليدية المدافعة عن وحدة المنهج، باسم وحدة العلم، معتبرا أن العلم لم يكن عبر تاريخه الطويل أسير أو رهينة منهج محدد، بل أن هذا التاريخ نفسه يكشف عكس هذا، مبلورا رؤية مغايرة، مفادها خرق القواعد المزعومة وتجاوزها، ما يؤكد أن العلم لم

يتطور أو يتقدم بمنهج واحد، بل كان الفضل في تحقيق هذا الهدف، يرجع إلى مشاركة مناهج عديدة، بما يعاكس ويبطل قناعة حراس المعبد وسدنته. وهذه التعددية لا تقتصر على المنهج، بقدر ما تمتد نحو النظرية، وهو العنصر الذي تناولناه ضمن ما أطلقنا عليه وفرة النظريات، التي يتبناها "فيرابند" في مقاربته الرافضة للمفاضلة بين نظريات العلم، وفي إطار اعتماده لمبدأ اللامقايسة، الذي يتشارك فيه مع "كون"، وهو ما يحيلنا إلى العنصر الموالي المعنون بـ التوجه النسباوي عند "فيرابند"، والذي يتضح فيه دفاعه بصراحة مدوية عن النزعة النسبية التيكلف بها كلفا شديدا، التزاما منه ووفاء لخطه الفوضوي، الرافض باستماتة للأحادية بشتى صورها، ما جعله يفتح الباب على مصراعيه أمام مختلف الفاعليات الإنسانية (التنجيم، السحر، الأسطورة...)، اعترافا بأهميتها وقيمتها وأدوارها التي لا يستهان بها في خدمة الإنسان والمعرفة، ما جعل "فيرابند" يدافع عنها بحرارة، مصوبا سهامه لانتقاد العلم وسلطته، لأن رجالاته المدعومين بسلطة الدولة وتشريعاتها، أصابهم الغرور والصلف، وهم يعتقدون بأن العلم هو أرقى المعارف والنموذج الوحيد للمعقولية والعقلانية، وما يتصل بهما من موضوعية ومنطقية واتساق...، وهي رؤية سخيفة ومضحكة في تقدير "فيرابند"، لأن أصحابها لا يفقهون شيئا، طالما أنهم يجهلون تاريخ العلم الزاخر بالرؤى المتعددة، والذي يترجم تزاحم وتضايف الكثير من الأفكار والمعارف، بما فيها العلمي واللاعلمي، وهو ما يناقض قناعات أولئك العلماء المتشبثين بالعلم على أنه عنوان الحقيقة ورمزها الأبدي، موقف يرفضه "فيرابند" بشدة، مراهنا بقوة على فضل المعارف الأخرى وثقالة وزنها، لننهي هذا الفصل بالتطرق إلى الحديث عن المقاربة الفيرابندية، من جهة ما خلفته من ردود فعل على متلقفيها، سواء من مؤيديها المثمنين لها أو من خصومها المنتقدين لها، وما يمكن أن تعد به أو تفتحه من آفاق أمام الدراسات المستقبلية في مجال الفلسفة والثقافة، بشكل عام، وفي حقل فلسفة العلوم، بوجه خاص.

وفيما يتعلق بخاتمة البحث، فقد ضمناها تلخيصا لأهم النتائج المتوصل إليها في إطار محاولتنا للإجابة عن الإشكالية المثارة.

وقد اعتمدنا في معالجة هذا البحث على المنهج التحليلي للتعامل مع نصوص"فييرابند"، وكذلك المنهج التاريخي، إذ لا يمكن استيعاب هذا الموضوع إلا بالعودة إلى جذوره الفلسفية والعلمية، والذي يمكننا من تتبع وتطور هذه الأفكار عبر الزمن وربطها بالتطورات العلمية؛ كما استخدمنا المنهج المقارن الذي يساعدنا في إبراز موقف "فيرابند" من المقاربات الإبستيمولوجية المعاصرة له، وأخيراً، المنهج النقدي الذي يسمح لنا بتقييم هذه الأفكار والوقوف على مدى وجاهتها، بما يمكننا من أن نقارب جوانب القوة والضعف في أطروحة "فيرابند".

وبخصوص اختيارنا لهذا الموضوع، فإنه يعود لعدة أسباب، منها ما هو ذاتي، ومنها ما هو موضوعي، أما عن الأسباب الذاتية، فمردها، ميلنا إلى فلسفة العلوم بقضاياها ومشكلاتها، -وذلك لارتباطها بالواقع العلمي وتحولاته المتسارعة، بفعل الثورات الهائلة التي يشهدها-، فهي تجعل الباحث والقارئ يستمتعان بمادتها وموضوعاتها المتنوعة، دون إغفال الصعوبات التي تثيرها لمن لا يمتلك ثقافة وتكوينا علميا رصينا. أما عن الأسباب الموضوعية التي حفزتنا على إنجاز مثل هذه الدراسة حول "فيرابند" فتعود لما يحتله هذا الأخير من مكانة هامة في الفكر الفلسفي المعاصر، سيما الإبستيمولوجي منه.

أما بالنسبة للأهداف المنشودة من وراء قيامنا بهذا البحث، فتتمثل فيما يلي:

- الكشف عن الرؤية النقدية الفلسفية التي صاغها "بول فيرابند"، الملقب بـ "نيتشه العلم"، وما تحمله من أبعاد ثورية، لم تنفصل عن نزعة إنسانية عميقة في فلسفته.

- إبراز صوت "فيرابند" الصادح بتعرية وفضح الحضارة الغربية التي ينتمي إليها، ومدى استغلالها البشع في تحويل وجهة العلم من أداة للتثقيف إلى أداة للقمع والابتزاز والاستبداد والخراب، كما يتضح من الحروب والمجازر، باستخدام الأسلحة الفتاكة

والتفنن في تجريبها واستعمالها بشكل فظيع، دون وضع أي اعتبار للقيم والمبادئ الإنسانية (على سبيل المثال، ما يحدث اليوم في فلسطين).

إن دراسة النزعة الفوضوية في فلسفة "بول فيرابند" لها أهمية كبيرة لأنها تسهم في نقد المنهج العلمي التقليدي، مما يكشف عن نقاط هشاشته، ويتيح تطوير مناهج أكثر مرونة. وتدعو إلى تبني تعددية منهجية، مما يوصلنا إلى اكتشافات علمية جديدة، باستخدام أساليب غير تقليدية. كما أنها تساعد في بناء توازن بين العلوم الطبيعية والمعارف الإنسانية، وتؤكد على أهمية الجانب الروحي والإنساني في البحث العلمي، مما يجعل العلم أكثر أخلاقية وإنسانية. وتشجع أيضاً على الابتكار في ميدان الأبحاث العلمية، وتطوير سياسات علمية توازن بين الحرية الأكاديمية والضوابط المنهجية. باختصار، تسهم هذه الدراسة في تطوير فهم أعمق للعلم وتعزز الابتكار والتفكير النقدي، مما يجعلها ذات أهمية كبيرة للفكر العلمي والفلسفي.

وكدأب أي عمل أكاديمي، فقد واجهتنا بعض الصعوبات في دراسة هذا الموضوع، نذكر من أهمها: صعوبة في ترجمة المصادر، وكذلك غزارة في الأفكار والمادة الفلسفية والمعرفية لدى "فيرابند" بما صعب علينا التحكم فيها كما يجب، نظرا لضيق الوقت.

أما عن المصادر والمراجع المعتمدة لإنجاز هذه الدراسة، فكان لابد علينا من العودة إلى مصادر الأساسية لـ"فيرابند"، حيث اعتمدنا على البعض من مؤلفاته الأصلية التي تخص فلسفة العلوم خاصة، تلك التي تناولت مشروعه الفوضوي بالتفصيل والتحليل مثل كتاب:(ضد المنهج) و((ثلاث محاورات في المعرفة) وكذلك مؤلفه (العلم في مجتمع حر)، و(طغيان العلم ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟')، أما بالنسبة للمراجع فاعتمدنا على (فلسفة العلوم في القرن العشرين) لـ"يمني طريف الخولي"، وكذلك (نظريات العلم) لـ"آلان شالمرز" و(فلسفة العلم العقلانية إلى اللاعقلانية) لـ " كريم موسى".

لكن هذا لم يمنعنا من الاستعانة من بعض الأعمال والدراسات الأكاديمية السابقة، بحسب ما توصلنا إليه، ونذكر على سبيل المثال: أطروحة الدكتوراه لـ"حمدان بوصالحيح" بعنوان (العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها: بول فيرابند نموذجا)، وكذلك أطروحة الدكتوراه لـ "شاذلي هواري" بعنوان (فلسفة اللامعقول عند فيرابند– دراسة تحليلية نقدية–).

وفي الختام فإننا لا نزعم لبحثنا هذا الكمال، ولكننا نأمل أن يكون لبنة تضاف إلى مكتبة جامعتنا، لعلها تحقق الإفادة، ولو بقدر ضئيل. وما يشفع لمجهودنا المتواضع هذا، إيماننا بالحكمة المأثورة التي مضمونها "من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد فإن أخطأنا فمن أنفسنا وإن أصبنا فمن الله، الذي نسأله السداد والتوفيق".

الفصل الأول

الخلفيات المغذية للطرح الفوضوي، وكيفية تفاعل فيرابند معها

أولا: النزعة النسبية عند اليونان (بروتاغوراس نموذجا)

أ. مفهوم النسبية

ب. النسبية عند بروتاغوراس

ثانيا: فيرابند مساجلا الوضعية المنطقية ومتحاملا عليها

ثالثا: فيرابند والتكذيبية: من الإعجاب إلى النبذ والتجاوز

رابعا: الحركة الدادئية

خامسا: فيرابند محتفيا بـ "لاكاتوس" وناقدا برامجيته

سادسا: باراديغمات "توماس كون" بين ترحيب "فيرابند" وانتقاده الحاد

تمهيد:

لا شك أن فيرابند لم ينطلق من فراغ في بلورة مقاربته الموسومة بـ "الفوضوية" أو التعددية، بل كدأب أي عمل يروم لنفسه التميز ولم لا الإبداع؟ فلابد أن يكون قد تأثر وتفاعل مع أجواء وثقافة عصره، وحتى مع الأفكار والمقاربات التي سبقته، بصرف النظر عن كونها قريبة منه زمانيا، أو بعيدة عنه وموغلة في القدم، وهو ما سنحاول أن نتبينه من خلال هذا الفصل، بالوقوف مع أبرز المحطات التي تجاوب معها "فيرابند"، وكيف تفاعل معها، تأثرا وتأثيرا، أو لنقل، قبولا ورفضا، ومن ثمة انتقادا وتجاوزا، ولنبدأ بـ:

أولا. النزعة النسبية عند اليونان (بروتاغوراس نموذجا):

أ. مفهوم النسبية:

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن كلمة نسبي لها وجهان، وجهها العام هو المقيد بغيره المرتبط به، ووجهها الخاص ما ينسب إلى غيره، ولا يتعين إلا مقرونا به ويقابل المطلق والنسبية صفة لكل ما هو نسبي أو إضافي، ويقال نسبية المعرفة وهي التي تنصب على علاقة شيء بآخر أو على علاقته بالذات العارفة، ومذهب النسبية (relativisme) يرى أن المعارف والقيم الإنسانية ليست مطلقة بل تختلف باختلاف الظروف والاعتبارات.[1]

والنسبية (relativité) مشتقة من اللفظ اللاتيني (relativus) نسبي، وبصفة عامة هو اتجاه في نظرية المعرفة يستبعد إمكانية معرفة العلم الموضوعي اعتمادا على ذاتية المعرفة البشرية ونسبيتها، وتنطلق النسبية من أنه ليس بوسع الإنسان في هذه أو تلك من مراحل تطوره أن يحصل معرفة تامة وصحيحة ومطلقة، لا عن الواقع ككل ولا عن موضوع ملموس من موضوعات البحث، وأنه في كل فترة زمنية لا تكون

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، الشركة العالمية للنشر، بيروت، 1979، ص180.

معارفنا كاملة وإنما تكون محدودة بمستوى تطور الإنتاج والعلم وبقدرات الناس المعرفية.[1]

أما أندري لالاند، فإن كلمة نسبي (relatif) هو كل ما يتعارض مع المطلق ويشكل العلاقة بين حدين أو عدة حدود، يجري تصور كل منها ظرفيا، ويقال نسبي بنحو خاص على ما لا يكون مقاسا بقياس مطلق، بل تبعا لحد آخر، وفي غياب هذا الحد يكون المطلوب لا معقولا مستحيلا أو غير صحيح، والنسبي هو ما يكتفي بنفسه، مالا يكون مطلقا مالا يمكن إقراره دون حصر أو تقييد.[2]

ب. النسبية عند "بروتاغوراس":

تمتلك النزعة النسبية جذورًا ومتبنين لها، حيث أن الإرهاصات الأولى لها ترجع إلى الفكر اليوناني القديم، وبالضبط مع النزعة السفسطائية وهي نزعة ظهرت ما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد بسبب تضارب المذاهب حول تحديد حقيقة الوجود، ولعل أشهر فلاسفة هذه النزعة "بروتاغوراس"، "جورجياس"، ويعتبر "بروتاغوراس" الذي كان زعيمًا للحركة السفسطائية في الفلسفة اليونانية أول من صاغ المبدأ النسبي عندما أعلن في مقولته الشهيرة أن «الإنسان هو مقياس الأشياء جميعًا».[3] أي أنه ما من شيء هو حقيقي، فالإنسان هو مقياس الأشياء كلها فما يراه صحيحا فهو صحيح، وما يراه خاطئا فهو خاطئ، وهذا القول يلخص تعاليمه كلها، ويشكل الفكر الشامل للسفسطائيين.[4]

ورغم الاختلاف بين المؤرخين حول مكانته الفلسفية، فإنهم يقرون له بالأسبقية في توجيه الفكر الفلسفي نحو قضايا الإنسان، حيث ينسب له الفضل أيضًا في وضع

1- مصطفى إبراهيم، في فلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2000، ص149.

2- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة أحمد خليل أحمد، الجزء الثاني، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 2001، ص1197.

3- كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 2000، ص314.

4- مريم الصادق محمد المحجوب، بروتاجوراس والنزعة الإنسانية، في: "مجلة رواق الحكمة"، جامعة الزاوية، ليبيا، العدد الثالث، جوان 2018، ص01.

أسس النحو وفقه اللغة عند الأوروبيين، كما أنه جمع بين نظرية هيراقليطس في التغير المتصل، ورأي ديمقريطس بأن الإحساس هو المصدر الوحيد لمعرفة الأشياء في العالم[1]، وخلص من ذلك إلى أن الإدراكات الحسية صادقة كلها، فبما أن الإدراك الحسي، في رأي ديمقريطس ناتج عن حركات في الذات (المدرك) والموضوع (المدرك) اللذين يتحركان بشكل متصل، فإن قبول بروتاغوراس لهذين المبدأين دفعه إلى الاعتقاد بأن كل إحساس صادق في كل لحظة، وبالتالي فإن الأحاسيس ليست نسبية فقط بل نسبية لكل شخص يدرك في اللحظة التي تحدث فيها.[2]

يُعتبر الإنسان في فلسفة بروتاغوراس، المرجع الأساسي للحقيقة وفقًا له، لا يوجد معيار مطلق للحقيقة، بل تكون الحقيقة نسبية وتتغير حسب وجهة نظر الشخص وظروفه، فهذا يعني أن ما يُعتبر حقيقة لشخص قد لا يكون كذلك لآخر، وهذا الاعتقاد يفسر الاختلافات في الفهم والتقييمات بين الأفراد، ويعتبر هذا المفهوم النسبي للحقيقة، والواقع بمثابة ثورة في التفكير الفلسفي في زمنه فقبل ذلك، كانت الفلسفة اليونانية تسعى إلى العثور على مبادئ ثابتة ومطلقة للحقيقة، مثل ما يقدمه أفلاطون في فلسفته عن الأفكار الكاملة، والأشياء الحقيقية ومع ذلك، قدم بروتاغوراس تحولًا رئيسيًا من خلال تأكيده على النسبية والتغير في الحقيقة، وفقًا لوجهات النظر المختلفة.[3]

إن بروتاغوراس يؤكد أن كل الانطباعات الحسية والآراء صادقة، وأن الصدق شيء نسبي، إذ أن كل شيء يظهر للشخص بحسب إدراكه في اللحظة التي يحدث فيها.

---

[1]– أفلاطون، محاورة تياتيتوس أو عن العلم، ترجمة: أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص14.

2– كريم متى، الفلسفة اليونانية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971، ص115.

3– ابن أحمد يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلوطين وبرقلس، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 2020، ص56.

وكان فهم "أفلاطون" لفلسفة "بروتاغوراس" على النحو التالي: «الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس وجود الموجود منها، ومقياس لعدم وجود غير الموجود منها»، وهذا يعني أنه لا يوجد حقيقة مطلقة بل كل شخص يشعر ويدرك الأمور بشكل فردي وفقا لتجربته الشخصية وإدراكه الفردي،[1] فبروتاغوراس حمل كلمة (الأشياء) على المعاني الحسية مثل الحار والبارد، والحلو والمر، والقبيح والجميل، والخير والشر، والخطأ والصواب، وقد صدر موقفه هذا بوجهة نظر نفعية في الحالتين، حيث انتهى إلى أن الحاكم الأصيل هو المدرك الحسي مع تفاوت في نسبية هذا الإدراك، عندما قال "بروتاغوراس" إن الإنسان مقياس الأشياء، فقد كان يعني أن الحواس لدى كل فرد هي معيار الوجود.[2]

إن المشكلة التي أثيرت هنا هي ما إذا كان "بروتاجوراس" يقصد في عبارته السابقة أن الإنسان ككل هو المعيار، أم الإنسان كفرد؟ والحقيقة هي أنه قصد الإنسان كفرد، فالإنسان عنده ليس إلا أنا وأنت كفرد، وكلنا نختلف في خبرتنا الحسية، لذلك حسم الأمر عنده يرجع لخبرة الحسية الفردية، وليس لخبرة الإنسان الحسية ككل،[3] بهذا الشكل يقر بروتاجوراس بنسبية المعرفة الإنسانية واختلافها من شخص إلى آخر، استنادًا إلى نسبية إدراكاتنا الحسية ما يقع في خبرة كل فرد الحسية هو موجود بالنسبة له، وما لم يقع في خبرته الحسية يعتبر غير موجود بالنسبة له.[4]

رغم الانتقادات الكثيرة التي وجهها أفلاطون إلى نظرية بروتاجوراس، إلا أنه لم يحسم النقاش إلا حينما كشف عن وجهة نظره بقوله على لسان سقراط: «إننا لا نعرف بالحواس، وإنما من خلال الحواس»،[5] يعني هذا أن المعرفة لا تبدأ إلا حينما يتلقى العقل ما تنقله إليه الحواس، ويحكم عليه وتبدأ المعرفة في رأي أفلاطون من هذه

1- أفلاطون، محاورة تياتيتوس أو عن العلم، مرجع سابق، ص40.

2- جعفر آل ياسين، فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1975، ص158.

3- مصطفى حسن النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1998، ص74.

4- المرجع نفسه، ص40.

5- أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م، ص267.

الأحكام العقلية على تلك المعطيات الحسية، التي تنعكس على صفحة العقل بواسطة الحواس. فالحواس ليست إلا وسيلة تنتقل عبرها تلك المعطيات الحسية، وبالتالي فهي لا تعرف، وإنما تنقل مادة المعرفة إلى العقل.[1]

وبما أن فكرة النسبية ترتد في الفلسفة القديمة إلى الشك (doubt)، ويرجع تردد العقل إلى عجزه عن الإثبات أو النفي،[2] فإن فيرابند ينتمي بفكره إلى تراث الشكاك من الفلاسفة فهو لا يخفي إعجابه بقول بروتاغوراس: «الإنسان مقياس الأشياء جميعا»، كما أنه يلجأ إلى نسبية بروتاغوراس عندما يقرر أن التراث التقليدي ليس في حد ذاته جيدا أو رديئا، كما أن "فيرابند" يمتدح نسبية بروتاغوراس، لأنها تهتم اهتماما كبيرا مثمنا بفكرة تعدد القيم والتقاليد دون أن تفترض رؤية الفرد الذاتية أو عاداته وتقاليده هي الوحيدة الصادقة.[3]

ويمكن القول أن الفوضوية المعرفة عند فيرابند ماهي إلا صورة جديدة من صور النزعة النسبية وهذا يتضح في مؤلفاته، فهو يصف نفسه بالنسباوي المتحمس، وإن نسبيته مختلفة عن النسبيات الأخرى، حيث يقول: «إن النسباوية التي أقدمها هنا ليست عن المفاهيم concepts، وإنما عن العلاقات الإنسانية human relations ، إنها تتعامل مع المشكلات التي تنشأ عن صراع الثقافات المختلفة أو الأفراد مع العادات والأذواق المختلفة».[4]

يعتبر مفهوم النسبية في الفلسفة البروتاغورية أحد العناصر الرئيسية التي تمثل جوهر فكر بروتاغوراس ومساهمته الفلسفية في فهم الحقيقة والواقع ويقوم بروتاغوراس بتحدي تصورات الفلاسفة السابقين الذين كانوا يعتقدون بوجود حقائق مطلقة وثابتة قابلة للاكتشاف بواسطة العقل البشري، مثل ما اعتقد أفلاطون وأرسطو وبدلًا من ذلك

1- أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، مرجع سابق، ص267.

2- كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مرجع سابق، ص314.

3- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، (د ت)، ص25.

4- خالد قطب، التعددية المنهجية، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 2008، ص51.

قدم بروتاغوراس الفكرة الجديدة بأن الحقيقة نسبية وتعتمد على وجهة نظر الفرد فعبارة «الإنسان هو مقياس كل شيء» التي يُعتقد أنها صاغها إنما تعبر عن هذا المفهوم الذي بموجبه، يفهم كل شخص الواقع ويحدد الحقيقة وفقًا لتجاربه الشخصية ومعتقداته ونظرته الخاصة وبما أن تجارب ومعتقدات الأفراد تختلف باختلاف وجهات نظرهم وظروفهم، فإن المفهوم البروتاغوري للحقيقة، يعني أن الحقيقة نسبية وتتغير باختلاف الظروف والمواقف.[1]

إنه بالإمكان تفسير أهمية هذا المفهوم البروتاغوري في ظهور المقاربة الفيرابندية بالتركيز على كيفية تأثيره في تطور الفلسفة والعلوم الاجتماعية، فبروتاغوراس لم يكتف بمجرد عرض فكرة النسبية، بل أشعل نقاشًا حول طبيعة الحقيقة والواقع، وهو ما أثر بشكل كبير على الفلسفة والعلوم الاجتماعية لاحقًا فتحوّل الاهتمام إلى دراسة كيفية تأثير السياقات الاجتماعية والثقافية والتجارب الشخصية على فهم الواقع، وتحديد الحقيقة، وهذا النهج يُعتبر أساسيًا في المقاربة الفيرابندية، فإن مفهوم النسبية في الفلسفة البروتاغورية يمثل تحولًا هامًا في التفكير الفلسفي حول طبيعة الحقيقة، وقد ساهم هذا التحول في ظهور المقاربة الفيرابندية التي تؤكد على أهمية دراسة السياقات الاجتماعية والثقافية في فهم الواقع وتحديد الحقيقة.[2]

إنه وعلى الرغم من قدم الفلسفة البروتاغورية وتاريخها، الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، إلا أن أفكارها وخاصة فكرة نسبية الحقيقة لا تزال لها أهمية بارزة في العصور اللاحقة، بما في ذلك العصر الحديث فهذا يعكس تأثيرها العميق والمستمر على التفكير الفلسفي والعلوم الاجتماعية.[3]

إن شتى الأبحاث العلمية التي قام بها "فيرابند" في ميدان فلسفة العلم، تؤكد نزعته النسبية، وفي المقابل لا يقبل جميع القواعد المنهجية وتصورات العقلانية التي

1- ابن أحمد يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلوطين وبرقلس، مرجع سابق، ص57.

2- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر، القاهرة، ط1، 2020، ص70.

3- ابن أحمد يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلوطين وبرقلس، مرجع سابق، ص58.

تقيد حرية الإنسان في البحث، فالمفاهيم التي يسعى فلاسفة العلم إثباتها والدفاع عنها كالموضوعية والعقلانية والمنهج، جميعها مفاهيم نسبية، لأنها متغيرة من نموذج لآخر ومن فيلسوف إلى فيلسوف، بما يجعل معانيها تختلف حسب مدلولها السياقي الذي وردت فيه، فكل النظريات مفيدة فليس هناك نظرية أفضل من أخرى، وجميعها متاحة لخدمة العلم.[1]

كما يشير فيرابند، إلى أن فهم الواقع يتطلب اعتبار العوامل الثقافية والاجتماعية التي تؤثر على تشكله وتطوره، فالواقع ليس مجرد مجموعة من الحقائق المستقلة، بل هو منتج للتفاعلات الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي تشكله، ومن هنا فإن الحقيقة نسبية بالفعل وتتغير بتغير وتباين السياقات والظروف، علاوة على ذلك، تشدد المقاربة الفيرابندية على أهمية تضمين أصوات متعددة ومتنوعة في عملية بناء المعرفة وفهم الواقع، فهي تعترف بأن وجهات النظر المتعددة والخلفيات الثقافية المتنوعة تسهم في إغناء فهمنا للحقيقة، وتسليط الضوء على جوانب مختلفة من الواقع بهذه الطريقة، وبهذه الكيفية فإن الفلسفة البروتاغورية للنسبية تظل مهمة ومؤثرة في العصور اللاحقة، لاسيما وأنها تشكل أساسًا للنهج الفيرابندي والمقاربة الفيرابندية _ موضوع مذكرتنا هذه _ في فهم الواقع والحقيقة من خلال النظر إليهما بشكل شامل ومتعدد الأبعاد.[2]

ويفهم من خلال هذا أن نسبية "بروتاغوراس" يتصورها "فيرابند" بأنها الدليل الذي يمكن الاسترشاد به، أو المرجعية التي يمكن استحضارها، والارتكاز عليها باطمئنان، فهي تشكل إحدى الأفكار المحورية التي ما فتئ يرددها في كتاباته، ومن ثم نستطيع القول أن "فيرابند" يستمد أصوله الريبية من التراث الشكي عند اليونان، إذ عندما يواجه الشكوكي فكرة أو اعتقادا ما فإنه يحاول إثباتها وتفنيدها في الوقت نفسه

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول عند فيرابند، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2010-2011 ص188.

2- محمد عبد الصمد، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 2019، ص67.

وتتساوى لديه أسباب قبولها ورفضها، ويفهم من هذا أن الجذور أو الخلفية الفلسفية لفكرة النسبية تعود للتراث اليوناني وتحديدا لدى السفسطائيين.

ثانيا. فيرابند مساجلا الوضعية المنطقية ومتحاملا عليها:

لقد حرصت الوضعية المنطقية على تحليل المعرفة الإنسانية، عاملة على حصرها في المعرفة العلمية وفقط ساعية إلى توحيد العلم وتحريره من أي نوازع أو آثار ميتافيزيقية ضمن ما عرف لدى روادها بمشروع "العلم الموحد"، فاعتبرت العلم نظاما شاملا مبنيا على أسس منطقية متسقة ومنسجمة فيما بينها وخاضعا لقواعد منهجية ثابتة ومضبوطة، إلا أن "فيرابند" انتقد هذا التصور واعتبر المشروع العلمي بمثابة مناهضة لكل المبادئ العقلية والتجريبية، وحتى المنطقية والعلم في حد ذاته يقوم على اللاإتساق والتعقيد وتحكمه مؤثرات أخرى غير موضوعية تجعله مليئا بالتناقضات.[1]

كما انتقد "فيرابند" المنهج الذي جاءت به الوضعية المنطقية، باعتباره محاولة منها لبناء نسق فلسفي وعلمي في إطار المنطق والتجريب، كما أنها ميزت بين العلم واللاعلم وبين القضايا العلمية وغير العلمية، ولقد كان "فيرابند" من أشد معارضي هذا الاتجاه، محاولا بناء نسق علمي غير مقيد، وهذا ما عبر عنه في فلسفته التي تدعو إلى التخلص من كل القيود، من أجل تحرير العلم والمعرفة من كل هاته العوائق والمثبتات التي جاءت بها الوضعية المنطقية.[2]

كما أنه ينتقد الوضعية المنطقية ليس لإهمالها تاريخ العلم فقط، بل كذلك نظرتها إلى العلم والمعرفة من دون تاريخ، أي إلغاء كل الجوانب التي تحيط بمسار وتطور

1- عبد الحميد العالم، "إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند نموذجا"، في: "مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية"، المجلد 12، العدد1، الجزائر، 2024، ص1103.

2- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، بول فيرابند نموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014، ص ص55، 56.

العلم، كما يقول "فيرابند" في نقده للوضعية المنطقية: «لا تمثل الوضعية الجديدة، إصلاحا جريئا وتقدميا للفلسفة، إنها تمثل تقهقرا نحو بدائية فلسفية جديدة».[1]

ونجد أنه بالرغم من الإسهامات التي جاءت بها الوضعية المنطقية التي عملت على توحيد منهج واحد، لكنها لم تسلم من الانتقادات التي تخص المعيار الذي جات به، وهو معيار التحقق لنظرية المعنى «نجد أن هذا المعيار الذي أفضى إلى طريق مسدود لأنه يؤدي إلى استبعاد العلم الإمبريقي نفسه».[2]

إن الممارسة العلمية التي تعتمد على سياق التبرير تتضمن مفاهيم وفروضا غامضة ولا يمكن أن تكون مطلقة من الناحية الموضوعية، بل تتضمن العديد من العوامل الشخصية. هذا يعني أنه لا يمكن وضع حدود دقيقة بين سياق الاكتشاف وسياق التبرير،* حيث يتداخل الاثنان معًا في عملية البحث العلمي.[3]

ومنه فإن "فيرابند" يتوجه بالنقد للقواعد المنهجية التي تقوم عليها الوضعية المنطقية، وأهم هذه القواعد التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير، حيث كانت المقاربات الابستيمولوجية قبل فيرابند تؤمن بهذا المبدأ، لاعترافها بعدم وجود طريقة لاكتشاف النظريات، لأنه لا توجد دراسات منظمة ومفيدة في مجال الكشف، لأنها تقع ضمن نطاق الحدس والإلهام والتخمين، وكلها مفاهيم يصعب إخضاعها للقوانين

1- Paul. Feyerabend, Adieu la raison, Trad, Baudouin Jurdant, Ed seuil, Paris 1989, pp188,189.

2- السيد نفادي، إتجاهات جديدة في فلسفة العلم، في: "مجلة عالم الفكر"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مجلد 25، العدد الثاني، الكويت، 1996، ص 90.

*- **سياق الاكتشاف:** يشمل الطرق العقلانية أو غير العقلانية التي يمكن أن تظهر فيها الأفكار في أذهاننا، بما في ذلك الدوافع غير المنطقية التي قد تؤدي إلى إنتاج الأفكار .فعلى سبيل المثال، يمكن لأفكار الشخص أن تنشأ من تأثيرات عاطفية أو تجارب شخصية. وفي السياق التاريخي، قد يكون لظروف الزمان والمكان دور في تكون الأفكار.

سياق التبرير: يتطلب مناقشة مدققة وعقلانية تكون متاحة للجميع من حيث المبدأ. يتعلق التبرير بإثبات صحة الأفكار والمعتقدات من خلال استدلال منطقي وإظهار كيف أن هذه الأفكار مقبولة ومنطقية في السياق العام. انظر: فريدل فاينرت، كوبرنيكوس وداروين وفرويد، ثورات في تاريخِ وفلسفة العلم، ترجمة أحمد شكل، مؤسسة الهنداوي للنشر والتوزيع، 2019، ص350.

3- بوعلام الزهرة، الإبستمولوجية الفوضوية عند بول فيرا بند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، في:"مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية"، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، المجلد العاشر، العدد الثاني، 2022، ص562.

وللدراسة المنهجية، فمنطق الكشف قد يكون لاعقلانيا لاحتوائه عناصر ذاتية، في حين منطق التبرير يقوم على الملاحظة والتجريب ودراسته مشروعة وهامة.[1]

إن "فيرابند" لم يجار هذا الموقف واعترض على هذا التمييز بين السياقين، مقدرا بأنه تمييز متعسف ومصطنع، فلا يمكن أن يكون الكشف مجرد خبط عشوائي، وإنما يدخل ضمنه الكثير من الاستدلال كما أن التبرير يتضمن كذلك عناصر ذاتية وهنا ينتقد الوضعية المنطقية في طرحها اللاتاريخي التي غيبت فيه الأطر التاريخية المحيطة بالمعرفة العلمية، واهتمت بمنطق تبرير النظرية العلمية حيث يقول: «إن التمييز بين سياقي التبرير والكشف غير حقيقي فالكشف لا يكون أبدا قفزة في الظلام أو حلما... كما أن التبرير لا يكون أبدا إجراء موضوعيا تاما».[2]

وجدير ذكره أن الاتجاهات المعاصرة عارضت على هذا التمييز ولم تأخذ به، كما أن "فيرابند" رفض التسليم بمبدأ عقلانية المنهج العلمي الذي تجد فيه الوضعية المنطقية ضالتها، مشددة على ضرورة الالتزام به في الممارسات العلمية، بما ينطوي من مبادئ ثابتة. ولقد اتخذ "فيرابند" موقفا رافضا لهذا الرأي، لأنه لا يعتد بوجود منهج علمي بالأساس يخضع إليه العلم وهو ما نلتمسه من نصه الذي يقول: «على الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلم، إلا أنه لا يوجد منهج ثابت، ولا يمكن أن يكون ثمة منهج كلي.... فالإنجازات التي تمت في مجال العلوم لا يمكن أن تعزي لوجود مبادئ عامة تغطي كل الحالات، فلا يوجد حقيقة كلية ولا معايير محددة للمعرفة والعقل».[3]

يرى "فيرابند" أن اختزال الممارسة العلمية في منهج وحيد يؤدي إلى إلغاء جزء كبير من البحث العلمي، ويقصي العديد من المعارف من دائرة العلم، بحكم أنها لا

1- حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فايرابند، في: "مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية"، المجلد 3، العدد1، جامعة حسيبة بوعلي بالشلف، الجزائر، 2021، ص06.

2- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص16.

3- نقلا عن خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص34.

تخضع للمنهج. وفي هذا الإطار يقول: «إن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد المتناسب مع النظرة الإنسانية»؛[1] أي أنه يجب تجاوز عملية المنهج الثابت لتكون الممارسة العلمية حرة، فهذا ضروري لنمو المعرفة وتقدم العلم، إذ أن السيطرة التي يخضع لها تحرمنا من نظريات كثيرة، قد يحالفها الصواب في تسويغ معرفتنا، كما انتقد "مبدأ الرد" الذي اعتمدته الوضعية المنطقية من خلال أطروحة اللامقايسة التي أراد من خلالها نقد وجهة نظر شائعة ومضللة في التفسير والرد وهنا يقصد الوضعية المنطقية،[2] فبعدما كانت الحدود والألفاظ العلمية ثابتة مهما تغيرت النظريات العلمية تصبح مع "فيرابند" متغيرة بتغير النظريات العلمية.

ومما سبق نستنتج أن "فيرابند" قد عارض ممثلي الوضعية المنطقية من خلال اعتمادها منهج التحليل للغة العلم، الذي ينادي بفرض منهج واحد يعتبر بالنسبة لممثليها الأساس، كذلك يؤاخذ بشدة الوضعية المنطقية على توجهها اللاتاريخي بحجة نشدانها لتحقيق الموضوعية، غير أنه يسجل بأنها لم تتجاوز أحكام القيمة من جهة تفضيلها لمنهج التحليل المنطقي للغة العلم، حيث يقول في هذا الصدد: «...إلا أن الإصرار الدائم على موضوعية أحكام القيمة سيكون أمرا منطويا على جهالة تماما...»،[3] هنا نجد بأنه لا توجد مبررات موضوعية لمختلف مواقف الوضعية المنطقية، أو لنقل، أنها تفتقر لموضوعية التي لطالما تغنت بها ودعت إليها .هذا عن سجاله للوضعية المنطقية فماذا عن موقفه من التفنيدية أو التكذيبية البوبرية؟

1- بول فيرابند، طغيان العلم، ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ترجمة مركز دلائل مراجعة عبد الله الشهري، المملكة العربية السعودية، ط1، 2017، ص16.

2- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص229.

3- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر. ترجمة: السيد نفادي، مراجعة سمير حنا صادق، المشروع القومي للترجمة، (د ط)، 2000، ص35.

ثالثا. فيرابند والتكذيبية من الإعجاب إلى النبذ والتجاوز:

يعد الطرح التكذيبي عند "كارل بوبر (1902-1994)"* القائم على القابلية للتكذيب والتكذيب*، كمعيار أساسيا للعلم، من أبرز الأفكار الرئيسية في فلسفته وهو مرتبط بطريقة في التفكير والبحث عن الحقيقة ويقترن هذا المفهوم بشكل أساسي بنهج "بوبر" المناهض للإنجازات التقليدية في العلوم الطبيعية والفلسفة، حيث كان يعتقد بأن العلم لا يمكن أن يكون صحيحًا بالمعنى المطلق، بل يجب أن يتم اعتباره مجرد تقدير مؤقت للحقيقة، فالطرح التكذيبي لدى بوبر هو عنصر أساسي في الفلسفة الحديثة، وهو يمثل نهجًا مهمًا في تطوير المقاربة الفيرابندية للعلم ويعتبر بوبر أحد أبرز الفلاسفة النقاد للإمبريالية العلمي ووقفتها المطلقة للنظريات العلمية، وقد أسهمت أفكاره بشكل كبير في تشكيل فهمنا للعلم وممارسته.[1]

كان "فيرابند" في بداية مشواره متأثرًا بأفكار كارل بوبر الذي كان يعتقد أنه لا يوجد طريق ملكي للوصول إلى الحقيقة، بل نحن نتعلم من خلال التجربة والخطأ، ومع ذلك، تحول "فيرابند" بسرعة من مؤيد لبوبر ومعجب بأفكاره إلى منتقد له ومتهجم على مقاربته التفنيدية.[2]

ويتضح هذا التأثر، بوضوح من خلال النقد الذي وجهه "بوبر" للوضعية المنطقية والمنهج الإستقرائي، وجاء ذلك من خلال فكرة التفتح على جميع الاقتراحات الممكنة لمعالجة المشكلات العلمية، هذا التصور يتقارب نوعا ما مع أفكار "فيرابند"، حيث يدعو بدوره إلى التفتح على كل التقاليد وإتاحة الفرصة بغرض المشاركة في

*- القابلية للتكذيب والتكذيب: يستعمل مصطلح القابلية للتكذيب (falsifiability) كمعيار يشير إلى الخاصية الإمبريقية لنسق من القضايا العلمية أو لقضية واحدة بمعنى مدى إمكانية حمل النظرية المنطقية لمكذب محتمل أو ممكن، أما التكذيب(falsification) فهو الحكم على نسق ما بالرفض فنحكم على النظرية العلمية بالتكذيب إذا تناقضت التنبؤات المستنبطة منها مع الواقع التجريبي. انظر: الشاذلي هواري، فيرابند الشخصية وفلسفة اللامعقول، في: " مجلة متون"، العدد الثاني، المجلد التاسع، سعيدة، الجزائر، ص61.

1- ابن أحمد يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلوطين وبرقلس، مرجع سابق، ص69.

2- يمنى طريف الخولي، العلم في القرن العشرين (الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012، ص418.

تطوير ونمو العلم ويظهر أول إجراء من هذا المنهج عند "بوبر" في نزع الحصانة عن النظريات العلمية، بغض النظر عن المبادئ أو القواعد التي تقوم عليها، لأنها لا يمكن أن تكون مصدرا لليقين، وتزعم شروط المعرفة الموضوعية العلمية على استبقاء كل فرض علمي كضرورة وتعبير عن محاولة.

ويعد "كارل بوبر" نموذجا لسيادة الروح النقدية في فلسفة العلم، ولقد كان النقد لب فلسفته ومبحثها الأساسي الذي اعتمد عليه في تناوله لقضية المنهج والمعرفة واللاعلمية،[1] فهو يعتقد أن العلم يتقدم بالتخمين والدحض وأن مبدأ التكذيب هو جوهر منطق العلم الذي يعد معيارا هاما للفصل والتمييز بين النظريات العلمية والعلم الزائف، فالنظرية تقدم بوصفها مؤقتة والنتائج المستنبطة منها تخضع لمحك التجربة من أجل اختبارها، فإذا كانت الملاحظات المتكونة غير متسقة مع تلك التي تتنبأ بها النظرية دحضت النظرية وأصبح الطريق مفتوحا لتخمين جديد،[2] ففي العلم ليس هناك نظريات صادقة وإنما هناك نظريات تقترب من الحقيقة والصدق (شبه الحقيقة)، فإخضاع النظريات لمبدأ التكذيب مهم جدا، حيث يكشف لنا مواطن الكذب في نظرية ما، فيؤدي إلى معالجتها وتطويرها إلى الأفضل أو رفضها، ولهذا فالنظريات العلمية عند "بوبر" تتطور لأن العلم عرضة (لقابلية التكذيب)، وبخضوعه للمراجعة النقدية عن طريق اكتشاف الخطأ واستبعاده فتظهر نظريات جديدة وهكذا يحصل التقدم العلمي.[3]

كما يرفض "بوبر" منطق التحقق أو مبدأ التحقق الذي جاءت به الوضعية المنطقية بل نجده قد قدم طرحا مختلفا تمام وهو الدحض أو التكذيب من خلال معيار القابلية للتكذيب، الذي يميز به القضايا العلمية عن غيرها، وفي هذا الصدد يقول:

1- ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة العلوم المشكلات المعرفية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط2، 2000، ص230.

2- جون كتنغهام، العقلانية، فلسفة متجددة، ترجمة: محمود منفذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 1997، ص160.

3- فاطمة يونس محمد يوسف، فلسفة العلم عند كارل بوبر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2015، ص34.

«إن الدور الأساسي الذي تلعبه النظريات أو الفروض أو الحدوس الإفتراضية في العلم يجعل من الأهمية بمكان أن نميز بين النظريات القابلة للاختبار أو القابلية للتكذيب وبين النظريات غير القابلة للاختبار أو غير القابلة للتكذيب».[1]

إن تسليم بوبر بمبدأ" قابلية التكذيب "وجعله المعيار الأساسي في تقدم العلم وتمييزه بين العلم واللاعلم جعله عرضة للانتقاد والرفض من قبل فلاسفة العلم المعاصرين وخاصة "فيرابند" فرغم إعجابه أول الأمر بفلسفة "بوبر"، إلا أن هذا الإعجاب لم يدم طويلاً، حيث تحول إلى انتقاد معتبرًا أن منهجها بسيط وفلسفتها غامضة،[2] ليصبح من أشد المعارضين لأفكاره وفلسفته، متجها في نقده لـ "بوبر" نحو محورين أساسيين من فلسفته، يتعلق المحور الأول بالمحور الإبستيمولوجي والذي يتضمن نقد المعرفة الموضوعية؛ أما المحور الثاني فيتعلق بالجانب الميتودولوجي الذي يتمثل في تقده لمعيار القابلية للتكذيب، وينطلق فيرابند في نقده للمعرفة الموضوعية والتي هي عند "بوبر" «المعرفة بالمعنى الموضوعي هي معرفة بدون عارف knower، أنها معرفة بدون ذات عارفة knowing.subject».[3] وهذا ما يضمن خلوها من أي نوازع ذاتية، فلا يمكن بحسب "فيرابند"، أن تكون موضوعية خالصة، لأنها مستقلة عن الميول والمعتقدات الإنسانية، حيث أن الذات الإنسانية تلعب دورا فعالا في بنائها، بل هي نتاج لها، كما يعتقد أن العقلانية النقدية، ليست اكتشافا بوبريا أصيلا، بل هي: «تقليد قديم استقاه بوبر من الفلاسفة قبل السقراطيين، وخاصة "أكسينوفان" (570-478ق م) هذا التقليد يهدف إلى إدراك العالم من أجل السيطرة على الطبيعة والآخرين ّ،كما أن هذه العقلانية النقدية عقلانية تعددية بمعنى تعدد الحجج التي تقف ضد بعضها بعض وتقارن بالمصدر الثابت للمعرفة، كما أنها تفضل الديمقراطية كصورة للمجتمع المفتوح، بالإضافة إلى وضعها للمنجزات العلمية في الاعتبار بوصفها أحداثا هامة في تاريخ الجنس البشري».[4]

---

[1]- كارل بوبر، أسطورة الإطار، في دفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 292، جانفي، 1978، ص 124.

2- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص19.

3- كارل بوبر، منطق الكشف العلمي، ترجمة: ماهر عبد القدر محمد علي، دار النهضة، بيروت، 1986، ص36،37.

[4] Feyerabend: Adieu la raison , op cit .P. P 188-189.

أما المحور الثاني والمتعلق بالجانب الميتودولوجي الذي انتقده "فيرابند" فهو مبدأ "القابلية للتكذيب" الذي يؤاخذ بوبر لأنه توجد في رأيه الكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها "بوبر" وأن اعتراضه على مبدأ التفنيد من منطلق أن العلماء لا يتخلون عن نظرياتهم، لمجرد تعارض بعض الوقائع معها، وإذا كان بوبر يؤكد على رفض النظريات فإن فيرابند يدعو إلى استبقائها والدفاع عنها.[1]

كما يعتبر "فيرابند" النقد الذي قدمه "بوبر" لـ "العقلانية النقدية"* تخمينات فارغة ولا قيمة لها في العلم، ويروج "بوبر" لمعايير لا تنطبق على العلم، كما يرى أن منهج التخمين والاختبار لا يمكن أن يحل مشاكل المذهب الاستقرائي، لأنه لا يوجد منهج واحد يمكن أن ينطبق على كل الحالات.[2]

إن فيرابند يريد أن يوضح أمرا مفاده، أن المعرفة لا يمكن تقييدها بمنهج محدد، بل هي متنوعة ونسبية. ويعتبر أن العلم ليس مجرد تخمينات وتفنيدات، ويشير إلى أن التاريخ يظهر أن العلماء يتجاهلون الشواذ وحالات التفنيد، وإذا حدثت فإنها حالات نادرة واستثنائية، لا يمكن أن تؤدي إلى رفض النظرية بأكملها. كما يعتقد "فيرابند" أن قواعد "بوبر" لا تسهم في تقدم العلم بل تعيقه وتشله، لأن الدحض الصارم يقضي على العلم ويمنع تقدمه[3]، والأكثر من ذلك فإنه ينتقد المنهج العلمي بشكل صريح ويعلن أن جميع القواعد التي يتبعها فلاسفة العلم، سواء كانوا من الاستقرائيين أو

---

[1]– بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص19.

*– العقلانية النقدية مصطلح وضعه بوبر لوصف فلسفته الخاصة، وتقديم شامل لفكره والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه، هو أن نضع موضع اختبار كل الأفكار التي لدينا، الانطلاق من مبدأ عدم إمكانية تقرير قيمة إلا بعد البرهنة عليها، لا يجب اختيار نظريات تنفلت من التكذيب، لا يجب أن نحمي بأي ثمن نظرياتنا، ولكن على العكس يجب إخضاعها للنقد الأكثر صرامة. انظر: حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص60.

2– محمد أحمد السيد، التميز بين العلم واللاعلم، دراسة في مشكلات المنهج العلمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1996، ص26.

3– بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص35.

التكذيبيين، تتعارض مع غايات العلم وتوجهاته، وأن هذه القواعد لا تساهم في بناء العلم بل تدخله في تعقيدات وتعمل على إعاقة تقدمه وجعله يتقوقع على نفسه.[1]

هذا ولم يكتف فيرابند بنقده لمناهج البحث عند بوبر بل هاجم أيضا الفلسفة النقدية التي ينتمي إليها فيقول: «لا يوجد حدث هام واحد في تاريخ العلم يمكن تفسيره من خلال منهج بوبر كما لا توجد محاولة واحدة لدى هؤلاء النقديين لرؤية العلم من منظور صحيح، إن هذه الفلسفة ليست سوى خادم مخلص غير فاهم للعلم».[2]

إن المنهج الذي أتى به بوبر –طبقا لقراءة فيرابند– لا يقدم جديدا للعلم، إذ لا يمكن اعتباره هدفا هاما في تاريخ فلسفة العلم، فالفكرة القائلة بالتقدم من خلال التكذيب لم تكن كشفا حقيقيا للعقلانية النقدية، فإذا كانت فلسفة فيرابند تقوم أساسا على مناهضة العقلانية والفلاسفة العقلانيين. فإنه يكاد يتخذ من العقلانية البوبرية الموضوع الرئيسي لانتقاداته اللاذعة التي تجاوزت أحيانا مجال الابستمولوجيا وفلسفة العلم إلى مجال الأحكام القيمية التي تتضمن تنكره لأستاذه وتأثره به ويتجلى ذلك في بعض عبارات محاورته والتي نقتبس منها:

«س: ولكنك كنت أحد أتباع بوبر، فكل حججك كانت على طريقته.

ص: ها هو عين الخطأ، لقد ظهر أثر بعض مناقشاتي مع بوبر في كتاباتي المبكرة... فأنا أجرب أي فكرة مألوفة أصادفها».[3]

بل أن تهجم فيرابند على بوبر يبدو أكثر حدة حتى يسخر من العقلانية النقدية ومن بوبر نفسه حين يدعي أنه لا يعلم أن بوبر فيلسوفا أصلا فيقول:

«س: ماهي حججك ضد العقلانية النقدية؟

ص: العقلانية النقدية؟

س: نعم العقلانية النقدية (فلسفة بوبر).

1- بوعلام الزهرة، الإبستمولوجية الفوضوية عند بول فيرا بند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، مرجع سابق، ص564.

2- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص20.

3- المصدر نفسه، ص97.

ص: لم أكن أعلم أن لبوبر فلسفة... بوبر ليس فيلسوفا إنه مجرد معلم».[1]

ويتخذ فيرابند من العقلانية النقدية عند بوبر مثالا للدوغماتية حيث يقول: «لا تكاد توجد حركة في مثل ابتذال... دغماتقية الحركة المسماة بالعقلانية النقدية».[2] معتبرا عقلانية بوبر بمثابة عقلانية قائمة على القمع والتخويف بل واغتيال العقول – على حد تعبيره–. [3]

ويسترشد فيرابند بـ"غاليلي" كمثال من تاريخ العلم، لإثبات زيف الميتودولوجية التكذيبية من خلال انتهاك "غاليلي" لتكذيبات النظرية الكوبرنيكية، إذ أن افتراض كوبرنيك أن الأرض تدور حول محورها قد فجر مشكلات ديناميكية عديدة كانت ستطيح بالنسق الكوبرنيكي إلى ما لانهاية فلو افترضنا أن الأرض تدور حول محورها لكانت كل نقطة عليها تنتقل بسرعة عظيمة، وبالتالي فلو رمينا بحجر من فوق صومعة فإنها ستسقط بعيدا جدا عن النقطة العمودية لها، لكن الواقع يثبت غير ذلك، ومن ثمة يمكن اعتبار نظرية كوبرنيك مفندة، إلا أن "غاليلي" تجاوز تلك التفنيدات وذلك بنقض حجة الصومعة والقول بدوران الأرض وبذلك أنقذ غاليلي نظرية كوبرنيك دون اللجوء إلى المنهجية التكذيبية، فالنظريات العلمية لا تتطور عن طريق التكذيب.[4]

وينتهي من نقده هذا بالاعتراف أن قواعد بوبر المنهجية لا تساهم في نمو المعرفة، وإنما تعوق تقدمها، لأنها لا جدوى منها بالنسبة للعلم فلو راعى كل من "كوبرنيقس" و"غاليلي"، لقواعد بوبر المنهجية لكنا ما نزال حديثي طور الفيزياء الأرسطية إلى غاية يومنا هذا.[5]

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص96.

2- المصدر نفسه، ص229.

3- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص73.

5- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص20.

هنا نخلص إلى أن "فيرابند" من خلال نقده للعقلانية النقدية إنما يقف موقف المعارض، وذلك لما تشتمل عليه من قواعد وأفكار تفرضها على الفكر، فهي في رأيه تشكل عقبة أمام تطور الفكر البشري وإبداعاته.

رابعا. الحركة الدادائية:

إن الدادية Dadaïsme:اتجاه في الفن والأدب البرجوازيين ظهر في سويسرا وفرنسا عن طريق بعض الشعراء والفنانين الذين هاجروا إلى سويسرا هربا من هول الحرب العالمية الأولى، ويدعو هذا الاتجاه إلى الحرية في الفن والإبداع والتخلص من كل القيود التقليدية، ومن المبادئ الجمالية للدادئيين هي: عاطفة التدمير وبتعبير أدق جنون التدمير والمصادفة العابثة للصور، والحبكات والسخرية،[1] ويعتبر "تريستان تزارا Tzara.Tristan"أحد مؤسسي "حركة الدادية" وقد عبر عن بعض مبادئ هذه الحركة بقوله: «إن العلم الحديث يثير تقززي عندما يتحول إلى نظام بحثي، ويعقد هويته الشمولية، إنني أبغض الموضوعية والانسجام، والعلم الذي يعتبر كل شيء موضوعا له. وأنا أيضا ضد الأنظمة، والنظام الأكثر قبولا هو الذي لا يحوي أيا من كل المبادئ...»،[2] وإذا كنا نتحدث هنا عن الفوضوية وعن الدادية، فذلك لأن "فيرانيد" قد تبنى أفكار هذه الحركة، ويصف نفسه بأنه دادي، فإذا كان الدادي يدعو إلى تحرير الفن من القيود وإلى حرية الشكل فإن "فيرانيد" يدعو إلى تحرير العلم من كل القيود التقليدية والمناهج الثابتة[3].

لقد تأثر فيرابند بالحركة الدادائية، التي اعتبرت واحدة من أهم الحركات الثقافية التي أعربت عن الفوضى في الفن والأدب وحتى في العلوم والنظم والقوانين التي كانت تحكم المؤسسات بعد الحرب العالمية الأولى، والتي عبرت عن الاتجاه

1- م. روزنتال وب. يودين، الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيات، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط6، (د ت)، ص192.

2- نقلا عن، حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص148.

3- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص148.

الفوضوي في مجال الفن والأدب، إذا كان رواد هذه الحركة يسلكون كالأطفال استجاباتهم وحتى في تفكيرهم، حيث كانوا غير مبالين بالمستقبل ولا بقواعد اللغة والعلاقات المنطقية. هذا التوجه أثر على شخصية فيرابند، حيث أصبح متمردًا وعنيدًا تجاه قواعد المجتمع وعاداته وتقاليده.[1]

لقد استهدفت حركة الدادائية التعبير عن السخط والاستياء من الثقافات والفنون وحتى العلوم التي كانت مسيطرة في ذلك الوقت، كما كانت ترى أنه يجب تحرير الأدب والشعر والثقافة من أي سلطة خارجية وقد مثلها "فيرابند" نموذجا فريدا وجريئا، حيث وضع رؤية فوضوية تتمرد تخرج على كافة الأنماط والنظريات المعروفة في مجال العلم والفلسفة، مما دفع ببعض النقاد إلى تسميته بـ"طفل فلسفة العلوم المشاغب"، نظرًا لحدة تمرده وتأثيره الشامل.[2]

إن "فيرابند" الذي كان منبهرًا بحركة الدادائية في الفن، قاده حماس هذه الحركة أن يسقطها على مجال العلوم، عاملا على الانقلاب على كافة النظريات الأبستمولوجية المعتادة، حيث لم يكتفِ بمهاجمة التجريبيين الذين كانوا يعبدون النموذج الاستقرائي، بل انتقد أيضًا الثوار الذين كانوا يعترضون عليهم. كان يقف تقريبًا بمفرده ضد الجميع، بما في ذلك "كارناب"، و"كارل بوبر"، و"ناجل" و"هامبل"، و"وماس كون"، رافضًا أي محاولة أبستمولوجية تهدف إلى تطوير نظرية تحاول تقريب الممارسة العلمية، لأنه يرى أن هذه الممارسة معقدة جدًا وتعتمد على مزيج من الأفكار المعرفية والجمالية والتصورات الميتافيزيقية والرغبات الشخصية، وبالإضافة إلى هذا، أشار "فيرابند" إلى الدادائية "Dadaïsme"، حيث يقول: «درست الدادايـة بعد الحرب العالمية الثانية، وما جذبني إلى هذه الحركة هو الأسلوب الذي

1- مزراق سيد أحمد، اللامنطوق في فلسفة "بول فيرابند، في: "مجلة التدوين"، جامعة وهران (2) محمد بن أحمد، المجلد التاسع، العدد الأول، 2017، ص10.

2- https://aawsat.com/home/article, consulté le 09/03/2024 à 17h00 .

اتبعه مبدعوها عندما لا يكونوا منهمكين في النشاطات الدادية»،[1] حيث ارتأى إلى أنه كان أسلوبا واضحا وبسيطا، وهو أسلوب يلائم التعبير عن الفكر، كان يلائم أيضا التعبير عن العاطفة، ومن هنا يعترف فيرابند بدور الدادائيين في فهم العلاقة بين اللغة والفكر عكس البعض الذين لم يفهموا، عملوا على هدم العلاقة بين اللغة والفكر، وكيف كان لهم الفضل في تشخيص فساد اللغة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، حيث أبدع روادها القوة العاقلة التي جعلت هذا التشخيص ممكنا.[2]

ومن هنا بدأوا التشخيص فكشفوا المماثلة المرعبة بين لغة المسافرين التجاريين وبين لغة الفلاسفة والسياسيين ورجال الدين، التي تشبه نطق الحيوان الأعجم، لهذا يقول: «إذ إن مدح الشرف وحب الوطن والحق والعقل والتواضع الذي تتشدق به مدارسنا ومنصات الخطابة واللقاءات السياسية، دخل بشكل غير محسوس إلى ما يشبه نطق الحيوان الأعجم، ولا أهمية لمدى اندماجهم في لغة أدبية، كما لا أهمية لمدى صلابة مؤلفيهم الذين يحاولون تقليد الأسلوب الكلاسيكي والمؤلفون أنفسهم لا يكادون يتميزون في النهاية عن زمرة من الخنازير المتجمدة».[3]

وهكذا إلا أن الآراء تعتبر أن الأبستمولوجيا الفوضوية تقترب أكثر من حركة "الدادية" في الفن، من حيث أن الفوضوي السياسي يسعى إلى إلغاء بعض الجوانب من الحياة وتحسين نمطها، في حين يسعى "الدادي" إلى ابتكار أشكال جديدة من الحياة ولا يتبع برنامجًا فكريًا محددًا. قد يكون ذلك متناقضًا في بعض الحالات، حيث يمكن أن يكون "الدادي" ضد "الدادية" ذاتها.[4]

1- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص137.

2- المصدر نفسه، ص136.

3- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص137.

4- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص26.

خامسا. فيرابند محتفيا بـ"لاكاتوس" وناقدا برامجيته:

"إمري لاكاتوس*ImreLakatos كان فيلسوفًا علميًا ترك بصمة كبيرة في ميدان الفلسفة والفكر العلمي اتبع لاكاتوس نهجًا جديدًا في فلسفة العلم، حيث قدم نموذجًا جديدًا لميتودولوجيا برامج الأبحاث العلمية، يختلف عن النماذج التقليدية التي اقترحها فلاسفة العلم في زمانه. ويعتبر لاكاتوس أن برامج البحث العلمي تمثل البديل الأمثل في تفسير النظريات العلمية، حيث يعتمد على تاريخ العلم كشرط أساسي لتقدم المعرفة العلمية.[1]

ويعد "إمري لاكتوس" أحد أبرز تلاميذ "كارل بوبر" الذين تأثروا بأفكاره إذ يعد نفسه مدينا له بدرجة لا يمكن تقديرها عن أي شخص آخر حيث يقول: «لقد غير بوبر حياتي، إنه أمدني بمجال خصب من المشاكل مع برنامج بحث صحيح، وبالطبع فإن العمل على برنامج بحث إن هو إلا عمل نقدي، ولا غرابة أن عملي بالمشاكل التي قدمها بوبر قد انتهى بي إلى حلول معارضة لتلك الحلول الخاصة به».[2]

وقد أخذ "لاكاتوس" عن "بوبر" فكرة التكذيب باعتباره الخاصة المميزة للعلم والقوة المفسرة لتقدمه في مقابل النظرة التبريرية التحقيقية كما عبرت عنها النزعة

---

*- إمري لاكاتوس Imre Lakatos (1922-1974) فيلسوف ومنطقي وإبستمولوجي مجري الأصل إنجليزي الجنسية، كتب باللغة الإنجليزية، انضم إلى الحزب الشيوعي المجري لمقاومة النازية. درس فلسفة هيجل وماركس تحت إشراف "جورج لوكاش"، كلف من طرف وزارة التربية بالإشراف على الإصلاح الديمقراطي للتعليم، ولكن موجة التطهير ساقته إلى السجون الستالينية أين أمضى ثلاثة أعوام 1950-1953، وعقب الانتفاضة المجرية لعام 1956 لجأ إلى إنكلترا أين تابع دراسته تحت إشراف "كارل بوبر"، وخصص أطروحته في كامبردج لطبيعة الاستدلال الرياضي، ثم خلف بوبر في كرسي المنطق في مدرسة لندن للاقتصاد، وكانت وفاته مفاجأة في مطلع 1974، لم ينشر في حياته أي كتاب لكن كتابه المنشور بعد وفاته "البراهين والدحوض" أصاب شهرة عالمية كما جمعت مقالاته في مجلدين: منهجية برامج البحث العلمي والرياضيات والعلم والأبستمولوجيا، ومن الممكن تحديد المشكلة المركزية التي تمحور حولها اهتمامه بأنها مشكلة تطور المعرفة العلمية". انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص569.

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول عند فيرابند، مرجع سابق، ص159.

2- نقلا عن: سهام النويهى، تطور المعرفة العلمية، مقال في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص118.

الاستقرائية، لكن التكذيب الذي يعنيه "لاكاتوس" هو التكذيب الواعي، كما أخذ عن "توماس كون" فكرة النموذج والتي تقابل (برامج البحث) عنده رغم معارضته الشديدة لتفسير "كون" لتطور العلم في ضوء علم النفس الاجتماعي والذي اعتبره تفسيرا لا عقلانيا، وبهذا يمكن القول أن "لاكاتوس" هو حلقة وسطى بين "بوبر" و"كون" وبالتالي ابستمولوجيا "لاكاتوس"هي الموقف الوسط بين (تكذيبية بوبر) و(براغماتية كون)، حيث استطاع التوفيق بينهما من خلال دراسته النقدية لهما، فهو يرفض النزعة التكذيبية المتطرفة التي تجعل من التكذيب ميزة للنظريات العلمية كما يرفض تصور "كون" عن النماذج الإرشادية، وهذا كان سببا ليتجاوز أفكار بوبر و"كون" ليشق لنفسه طريقا ثالثا ويؤسس لمشروعه الخاص، الذي تميز بمجموعة من الخصائص الفريدة كالتسامح المنهجي والتنافسية المفتوحة والمتواصلة بين البرامج البحثية.[1]

إن التأثير الرئيسي للاكاتوس في اقتراحه لهذا النموذج الجديد، حيث قام بإعادة تفسير وتحليل النظريات العلمية بشكل مختلف، مما جعل منه من الفلاسفة البارزين الذين ساهموا في تطوير فهمنا لطرق البحث العلمي ومنهجيته. إذ يرى "لاكاتوس" أن التقدم العلمي يتم من خلال تطوير البرامج البحثية، حيث تخضع هذه البرامج لنمط من التغيرات مع مرور الزمن. يعتقد "لاكاتوس" أن كل برنامج بحثي يتطور ويصبح أكثر فاعلية مع مرور الوقت، ولكنه في الآن نفسه يبلغ ذروته ويبدأ في الانحدار، وعندما يصل إلى هذه المرحلة، يتم استبداله ببرنامج جديد يكون أكثر تكيفًا مع التحديات الجديدة والمتغيرات في المعرفة العلمية. كما يرى أن البرامج البحثية تمثل مجموعة من الافتراضات والنظريات التي تشكل أساس استنتاج المعرفة العلمية، وتعكس الفهم الحالي لطبيعة العالم وطريقة عمله.[2]

1- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص96.

2- أليكس روزنبرج، فلسفة العلم مقدمة معاصرة، ترجمة: أحمد عبد الله السماحي وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2019، ص301.

ويرفض "لاكاتوس"التكذيبية الدغماتية باعتبار أنها تقوم – حسبه – على فروض زائفة، وهذا ما نلمسه في قوله : «إنه ذلك الصنف من التكذيبية الذي يسلم باحتمال الخطأ، بالنسبة لكل النظريات العلمية دونما استثناء، ولكنه يحتفظ بنوع من الأساس الإمبريقي غير القابل للخطأ، إنه إمبريقي من غير أن يكون استقرائيا .... وهكذا فإن التكذيب الدوغماطيقي، كما يعلق لاكاتوس هو النوع الأضعف للتبريرية»،[1] فما صلته بفيرابند؟

لقد بدأت صداقة "لاكاتوس"مع "فيرابند" في البدايات الأولى لتكوينهما وزاد تقربهما عندما كان كل منهما ينادي بالتعددية والفوضوية في المناهج العلمية، وقد كان تقدير "فيرابند" اتجاه "لاكاتوس" نابعا من إعلانه بأنه فوضوي متنكر، حيث أن "لاكاتوس" أخفق في تعريف حد الزمن الذي ينبغي بعده أن يترك برنامج بحث متفسخ، أين صرح "لاكاتوس" بأن لديه ميتودولوجيا أكثر تطورا، وبدأت صداقة الفيلسوفين تتوطد ولم تقتصر على نطاقها الشخصي بل تعدت إلى المستوى الفلسفي الابستمولوجي كذلك ونذكر هنا اللقاء الذي جمعهما سنة 1972 في احدى الاحتفائيات التي نظمتها جامعة برلين، أين كان كل منهما يحمل معول النقد حيث قال "لاكاتوس"مخاطبا "فيرابند": «نه لديك أفكارا مدهشة، لماذا لا تسجلها واكتب أنا ردا عليها؟ وننشر هذا وذاك في عمل واحد وأعدك بأنه سيكون مبعث سرور لكلينا»،[2] ويقصد بهذا المشروع إغناء فلسفة العلوم من خلال جدلية قائمة بين العقلانية المتبناة من طرف "لاكاتوس" والفوضوية المدافع عنها من قبل "فيرابند".

ولقد أعجب فيرابند ببعض آراء إمري لاكاتوس في فلسفة العلم، لكنه كان يرغب في إخصاب هذه الفلسفة من خلال مشروع بحث علمي مشترك. كان الهدف من هذا

1- نقلا عن: علي هري، البرمجة عند "إمري الكاتوش"، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة، جامعة قسنطينة، 2007-2008، ص9.

2- توفيق بن ولهة، مقالة في اللامنهج مقاربة بول فيرابند، في: "مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية"، مجلد 16، العدد 02، جامعة سطيف2، الجزائر، ص ص 126، 127.

المشروع إحداث تطوير في الفلسفة العلمية عبر مزج العقلانية والفوضوية في جدلية مثيرة، حيث يمكن لكلتا الفلسفتين أن تساهما بتصوراتهما في تقدم الفكر العلمي.[1]

إن دفاع إمري لاكاتوس عن العقل والعقلانية والموضوعية، واعتباره العلم أرقى أشكال المعرفة بسبب شمولية منهجه، جعلت من فلسفته تأخذ طابعًا دوغمائيًا، حيث قام بإقصاء العديد من المعارف التي اعتبرها غير عقلانية. وموقف فيرابند من عقلانية لاكاتوس كان مشابهًا لسابقيه، حيث عارض كل المحاولات التي تهدف إلى تقييد العلم بقواعد موضوعية، معتبرًا العلم مشروعًا فوضويًا لا يخضع لقيود محددة.[2] ورغم التقارب والاتفاق الموجود بين كلا الفيلسوفين وهذا يظهر جليا في تصريحاته في بعض مؤلفاته، معلنا أنه كان يريد أن يقوم بمشروع بحث علمي مع لاكاتوس، في إطار مناظرة ونقاش، كان يأمل أن يكونا مثمرين بينهما.

إن ما قدمه إمري لاكاتوس من آراء حول فلسفة العلم أعجب به فيرابند لكن في جانب من جوانب أطروحاته يعترض فيرابند على سيطرة العلم، وتأثيره القوي على مجالات الحياة، من خلال فرض منهج علمي محدد يستبعد كل ما هو علمي من دائرة العلم، مقدرا أن العلم ليس نظامًا معرفيًا مقدسًا يتطلب الاكتفاء بما هو علمي فقط، بل هو نظام عقلاني يجب أن يتطور ويزدهر بين أنظمة معرفية أخرى، مقدرا أن تقييد البحث العلمي وتحديده بقواعد عقلانية يحصر حرية الإبداع والإنجاز في العلم، ويجعله يفتقد قيمته النقدية.[3]

إنه رغم هذا التقارب الفكري، إلا أن مقاربة "لاكاتوس" لم تسلم بدورها من انتقادات "فيرابند"، وإن كانت أقل حدة من تلك التي وجهها لسابقيه، فقد رافع "فيرابند" ضد العقلانية في كتابه (ضد المنهج) الذي كان في البداية مشروعا سينجزه رفقة "لاكاتوس" حول العقلانية بحيث كان الاتفاق بينهما أن يتقاسمان الأدوار، حيث يقوم

1- توفيق بن ولهة، مقالة في اللامنهج مقاربة بول فيرابند، مرجع سابق، ص127.

2- حمدان بوصالحيح، العقلانيّة العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص111.

3- يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص414.

لاكاتوس بالدفاع عن المنهج، وإعادة صياغتها وتحويل صديقه فيرابند كما يقول هو نفسه إلى لحم محشي، كتعبير عن قساوة النقد الذي كان سيجمعهما، لكن ذلك المشروع بينهما لم يكتمل نظرا للموت المفاجئ الذي ألم بـ "إمري لاكاتوس"، وهكذا جاء الكتاب منقوصا لافتقاره التعبير عن نقيض القضية التي كان ينويان تناولها تناولا متعارضا.[1]

إن دفاع لاكاتوس عن العقل والعقلانية والموضوعية، معتبرا العلم أرقى أشكال المعرفة بحكم شمولية المنهج المتبع جعلت فلسفته تأخذ منحنا دوغمائيا، حيث قام بإقصاء الكثير من المعارف بحكم أنها غير عقلانية، وموقف فيرابند من عقلانية لاكاتوس كان لا يختلف كثيرا عن سابقيه، فلقد ناهض كل المحاولات التي تسعى إلى عقلنة الممارسات العلمية فهو يرى أن العلم مشروع فوضوي لا يخضع لقواعد موضوعية.[2]

ويتفق فيرابند مع ما ذهب إليه "لاكاتوس" في ميتودولوجيا برامج الأبحاث العلمية في الكثير من النقاط ومنها معارضتهما لمسعى إعادة تشكيل العلوم بردها إلى علم واحد ومنهج واحد، وهو ما يعرف بـ "نظرية الرد" التي قال بها التجريبيون المناطقة ويذكر فيرابند أنه يتفق معه في اقتراحين يمثلان جزء أساسيا من نظرية العلم وهما:[3]

الاقتراح الأول: أن تضمن الميتودولوجيا للأفكار الجديدة مساحة حيوية أدنى وأن تضعها دائما في الاعتبار، فالنظرية الجديدة يجب أن يسمح لها بتطوير نفسها ومحاولة تفادي أخطائها التجريبية، فلا يجب أن نستخدم في الوقت نفسه المقاييس

1- توفيق بن ولهة، مقالة في اللامنهج، مقاربة بول فيرابند، مرجع سابق، ص127.

2- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص111.

3 – Paul. Feyerabend : contre la méthode esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance, traduit de l'anglais par Baudouin jurdant et Agnes Schlumberger, éditions du seuil, Paris ,1989.P.200.

المعتادة لتحديد إمكان استمرار هذه النظرية وإنقاذها، ولا يجب أن تمنعنا عدم الإتساقات الداخلية الفضة المتصادم مع النتائج الاختبارية للاحتفاظ برأي ما وتمثله لسبب أو آخر، أو الافتقار الواضح للمضمون التجريبي، وإن تطور نظرية ما على فترات طويلة وليس شكلها في لحظة معينة هو الذي يعتد به بالنسبة لأحكامنا الميتودولوجيا.

الاقتراح الثاني: اعتبار المعايير المنهجية عند "لاكاتوس" ليست في منأى عن النقد «فهذه المعايير يمكن واختبارها، واستبدالها بمعايير أفضل، ولا يكون هذا الاختبار مجردا بل لابد من استخدام معطيات تاريخية، ذلك لأن المعطيات التاريخية تلعب دورا حاسما في الجدال والمناقشة بين الميتودولوجيات المتزاحمة»،[1] إن هذا الاقتراح الأخير هو الذي يميز كلا من "فيرابند" و "لاكاتوس" عن المناطقة الذين يعتبرون الاسترشاد بالتاريخ منهجا ذا فعالية هشة، وأن الميتودولوجيات يجب أن تقوم على أساس نماذج بسيطة فقط.[2]

وهكذا يقر فيرابند بوجود نوع من التوافق المنهجي بينه وبين "لاكاتوس" حيث وجد في مواقف "لاكاتوس" المنهجية سندا لمواقفه الشخصية، ويذكر فيرابند في مقام آخر أن فلسفة لاكاتوس العلمية ماهي إلا ضرب من الفلسفة الفوضوية القريبة من الفلسفة التي لا تلتزم بمسار خطي مرسوم ومنمط بشكل مسبق بواسطة المعايير والقواعد التي يعتقد أنها ثابتة ونهائية.[3]

ولكن على الرغم من هذا التقارب بين أفكار الفيلسوفين، إلا ان عقلانية "لاكاتوس" الميتودولوجية لم تسلم من انتقادات "فيرابند"، وإن كانت بشكل أقل حدة من تلك الموجهة للتجريبية والمنطقية والعقلانية النقدية البوبرية، ويعارض فيرابند تسليم لاكاتوس بأفضلية العلم دون البرهنة على ذلك، معتبرا أن دراسته كانت من جانب

---

[1] – P. Feyerabend : contre la méthode, op cit .P .200 .

[2] – حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص111

[3] _ المرجع نفسه، ص 110.

واحد فقط أما الميادين الأخرى كالماركسية والتنجيم والسحر، فقد اكتفى فيها بتحليلات سطحية خارجية ونفس الحكم يصدق على جل العقلانيين النقديين.[1]

كما يعيب "فيرابند" على "لاكاتوس"، إيمانه بتلك المعايير الثابتة والمحددة، التي يقاس بها مدى تقدم برنامج بحث ما وتأخره، والمتمثلة في النمو النظري (التنبؤات) والنمو التجريبي (التعزيزات)، فتقدم برنامج بحث ما يتوقف على أن نموه النظري يسبق نموه التجريبي، أي قدرة البرنامج على التنبؤ بوقائع جديدة يتم إثباتها فيما بعد وعندما يتم تحقيق هذه التنبؤات فهذا يعني أن البرنامج متقدم نظريا وتجريبيا.[2]

غير أن فيرابند يرى أن هذه المعايير لا عقلانية بل تنتمي إلى الحس المشترك فميتودولوجيا لاكاتوس لا تشكل حسب فيرابند أداة ملائمة صالحة للتوجيه في مجرى العمل الميداني، مقدرا تقدم معايير تساعد المشتغل بالعلم على تقييم الوضعية التاريخية، التي يتخذ في إطارها قراراته، ولكنها لا تقدم للباحث ما إذا كان يحتفظ ببرنامج بحث أو يهجره. وبهذا يرى "فيرابند" أن "لاكاتوس" يعرض علينا في الواقع ألفاظا رنانة مثل عناصر الميتودولوجيا، ولا يقترح علينا أنه ميتودولوجي، وأنه طبقا لمناهج البحث الأكثر رقيا في عالم اليوم، فإننا لا نعثر لديه على منهج بهذه الدلالة.[3]

إن هذا معناه أن الاتفاق على وجهة نظر واحدة، ومنهج واحد يتعارض مع طبيعة النشاط العقلاني بشكل عام. ومن وجهة نظر فيرابند، فإن الميتودولوجيا التي وضعها "لاكاتوس"، – على حد تعبيره – ، لم تنجح في تقديم توجيهات ملموسة للعلماء يهتدون بها في أبحاثهم، ولم تلعب دور الموجه لهم. وبالتالي، يعتبر أن لا من تحويل العلم إلى مجموعة من القواعد.[4]

1– آلان شالمرز، نظريات العلم، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، ص140.

2– حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص110.

3– بول فيرابند، كيف ندافع عن المجتمع ضد العلم في الثورات العلمية، مصدر سابق، ص235.

4– ناصر هشام محمد، مدخل إلى فلسفة العلوم، دار الجوهرة، القاهرة، ط1، 2015، ص414.

وينتقد "فيرابند" التمييز الحاد الذي أقامه "لاكاتوس" بين التاريخ الداخلي والتاريخ الخارجي للعلم والذي بين خلاله أصالة وحيوية التاريخ الداخلي، قياسا للتاريخ الخارجي الذي يعتبره ثانويا، فالعلم عند "فيرابند" هو بمثابة كيان تاريخي وفاعلية إنسانية واجتماعية وليس مجرد نسق منجز بمنهجية وخصائص منطقية وفي هذا الإطار كتب يقول: «التاريخ عموما وتاريخ الثورات بشكل خاص هو دائما أكثر غنى في مضمونه وأكثر تنوعا وأكثر تعدادا في أشكاله وأكثر حيوية بما لا يلتفت إليه أو يعتقده أحسن المؤرخين وأفضل الميتودولوجيين».[1]

وهكذا، ينتهي "فيرابند" إلى الجهر بأن عقلانية "لاكاتوس" الميتودولوجية لا تغدو أن تكون زينة وبهرجة لفظية، كأنها ذاكرة الأزمنة الممتازة، حيث كان ولا يزال من الممكن النهوض بمشروع معقد وكارثي في الغالب مثل العلم، وذلك بالركون إلى عدد من القواعد البسيطة والمعقولة.[2]

ومما سبق فإن "فيرابند" عارض أي محاولة لتقييد العلم بقواعد منهجية معينة، تحت أي عنوان ومسمى كان، سواء كانت منهجية الاستقراء أو التكذيب، أو حتى ميتودولوجية الأبحاث العلمية، فهو يرى أن محاولة تقييد العلم بهذه القواعد تكبح تقدمه وتمنع تطوره، إذ يعتبر العلم نشاطًا متحررًا لا يخضع لأي قيود مهما كان شكلها، حتى ولو كانت تلك القيود من نوع القواعد المنطقية التي يتحفظ عليها "فيرابند"، بله ينفر منها ويرى بأنها لا تنسجم مع معطيات تاريخ العلم.

سادسا. باراديغمات "توماس كون" بين ترحيب "فيرابند" وانتقاده الحاد:

توماس صموائيل كون* Kuhn.Samuel Thomas، أحد أبرز فلاسفة العلم، تتمحور وتدور فلسفته حول فكرة النموذج الإرشادي (paradigm). استخدم هذا

1- بول فيرابند، كيف ندافع عن المجتمع ضد العلم في الثورات العلمية، مصدر سابق، ص275.

2- آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص93.

*- توماس كون (Thomas Samuel Kuhn 1922-1996): فيلسوف ومؤرخ علم أمريكي، عرف اسمه الشهرة من خلال كتابه "الثورة الكوبرنيكية"- 1957، ثم ازداد لمعان نجمه مع مؤلفه "بنية الثورات العلمية" -1962، اتهمه خصومه ونقاده=

المصطلح بعدة معانٍ، حيث يُعتبر النموذج الإرشادي، أو الإطار الفكري، كنموذج يُعتمد عليه من قبل مجتمع الباحثين العلميين في فترة زمنية معينة يشمل ذلك النظريات التي يتفق عليها مجتمع الباحثين، بالإضافة إلى الطرق المميزة لتحديد وحل المشكلات العلمية.[1]

يتميز النموذج الإرشادي بأنه ليس قياسيا بمعنى أن هناك تفاوتًا بين المفاهيم في النظريات الأساسية المختلفة في العلم. وعلى الرغم من أن حركة العلم، والنظريات العلمية، والنماذج الإرشادية الجديدة لا تنبع من استنتاجات منطقية أو تجارب سابقة، فإنها تكون غير قياسية ونسبية وبصفة عامة، يتم تطوير العلم من خلال تبني نماذج إرشادية جديدة أو باراديغمات – بلغة كون –في كل فترة علمية من طرف مجتمع علمي معين.[2]

إن النموذج الجديد لا يمكن أن يكون مجرد مجموعة من الأفكار المتناثرة، بل يجب أن يكون محددًا من البداية بدرجة كافية، ليظهر إمكانياته الملفتة للنظر لمبتكريه.[3]

من الناحية المبدئية، يتفق "فيرابند" مع كون في بعض الجوانب من فلسفته، بما في ذلك عدم قابلية النظريات العلمية للمقارنة، لأن لكل نظرية خصائصها وسماتها التي تجعلها فريدة، غير أنه يعتبر أن بعض أفكار كون غامضة وتحتوي على الكثير من اللغو والخلط، وينتقد استخدامه للكلمات بشكل غير مناسب، حيث يقول: «... لم يحدث أبدا من قبل أن سيطر على كتابات فلسفة العلم هذا الحشد من المؤلفين العجزة غير الأكفاء أو التافهين المتسلقين، فتوماس كون يشجع أولئك الذين ليس لديهم أدنى

=بالنزعة النسبية واللاعقلانية، لكنه يبقى يمثل مرحلة حاسمة في تطور فلسفة العلوم. انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص540.

[1]_ توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد، 168، 1992، ص11.

2- المرجع نفسه، ص12.

3- توماس كون وآخرون، مقالات نقدية في تركيب الثروات العلمية، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد علي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000، ص83.

فكرة عن سبب سقوط حجر من أعلى إلى أسفل أن يتحدثوا بثقة وتأكيد عن المنهج العلمي، وأنا لا أعترض على عدم الكفاءة وإنما يأتي اعتراضي حينما تقترن عدم الكفاءة بالسأم والثقة العمياء في الذات».[1]

ويعتبر فيرابند أن التصور الذي قدمه كون حول ما يسميه البراديغم، هو شكل من أشكال السلطوية، حيث يفرض فيه المجتمع العلمي سلطته بتحديد نموذج إرشادي معين يوصف على أنه موضوعي علمي، في حين أن ما يقدمه النموذج هو محاولة من بين المحاولات التي تضمن له سمة التفضيل والتميز العلمي، وتمكنه من استبعاد النموذج القديم.[2]

وعليه يذهب "فيرابند" إلى أن تعددية النماذج الإرشادية لكون لا تُقدَّر، حيث يتم التوحيد بسرعة والالتفاف حول نموذج واحد يُعتبر الأحق والأجدر بقيادة المجتمع العلمي والتحكم في اتجاهات البحث العلمي. في المقابل، يؤمن فيرابند بتعددية تقوم على الفوضوية وتخلو من السلطوية الأحادية، حيث لا يعترف ولا يسلم بوجود نظرية واحدة تستحق الالتزام بها، وتقتضي تتبع قواعد محددة والخضوع لها، إذ يرى أن التسلط الذي يحيط بنموذج كون الإرشادي لا يتماشى مع روح الحرية والتعددية والانسيابية،[3] وبالتالي فهو خالق للإبداع ومزهق لروحه.

يعارض "فيرابند" بشدة السلطة التي يمارسها المجتمع العلمي، حيث ينتقده لإقصاء البدائل الفكرية الأخرى. مشددا على أن النموذج الإرشادي، الذي يعتمده المجتمع العلمي كمعيار للحقيقة والمعرفة، هو ببساطة نتاج لمذاهب فكرية محددة، ويعبر عن مرحلة معينة من تطور العلم والمعرفة، ولا يمكن أن يكون مطلق الصحة. وبناءً على هذا الاعتقاد، يرى فيرابند أن الإقصاء الذي يمارسه المجتمع العلمي اتجاه البدائل الفكرية لا مبرر له، حيث يجب أن تكون هناك مساحة للتنوع والتعدد في الفكر

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص18.

2- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص156.

3- يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص114.

والنظرة إلى العالم لهذا السبب، يرفض ما يُسمى بالمجتمع العلمي، ويسعى بدلاً من ذلك إلى تعزيز فكرة المجتمع الحر، الذي يحترم حرية الأفكار ولا يخضع لأية قيود منهجية.[1]

يعتبر فيرابند أن العلم لا يسير وفق خطة منهجية ثابتة سلفاً، كما يعتقد البعض أمثال كون وفي رؤيته، قد تكون المعارف البسيطة والمتداولة في الحياة اليومية جزءًا من هذه النشاطات وتكون أحيانًا عرضة للصدفة. ولهذا السبب، يحث فيرابند على اعتماد أكبر قدر ممكن من النظريات المختلفة، وذلك تماشياً مع نظريته الفوضوية، التي تقوم على فكرة أن كل شيء ممكن ومقبول، طالما أنه يقودنا إلى حل المشكلات التي تطرحها العلوم.[2]

وفي الأخير، يمكن القول أن "كارل بوبر" و"توماس كون" و"إمري لاكاتوش" و"بول فيرابند" بمثابة فريق عمل متكامل، يعرف باسم "الرباعي الإبستمولوجي"، حيث شكل معالم فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، ومن خلال ما قدمه هؤلاء، فإن فلسفة العلم أصبحت فلسفة إنسانية حية خفاقة، وليست مجرد تحليلات منطقية، لا تستغني طبعا عن رصانة المنطق، لكنها تتجاوزه لتصبح فلسفة ابستمولوجيا معرفية لا تنفصل البتة عن تاريخ العلم.[3]

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص157.

2- يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص414.

3- المرجع نفسه، ص419.

خلاصة الفصل:

نستنتج أن "بول فيرابند"، كان له تأثير كبير على المنهجيات الفلسفية والعلمية بفضل مفهومه الفيرابندي للمطارحة والنزعة النسبية، وأفكاره أحدثت تحولات في الفلسفة العلمية والنظرية، حيث أكد على أهمية التفكير المبتكر والإبداعي وعلى ضرورة تجاوز القواعد الثابتة والمناهج التقليدية، وشجع على التحقق المستمر والشك النقدي في البحث العلمي، مواكبة لأفكار بوبر، كما تجلى تأثيره في دعمه للدادائية ودورها في تحرير العقل وتشجيع الإبداع، فضلا على أن استعراضه للمطارحة اللاكاتوسية أكد على أهمية التوازن بين العقلانية والفوضوية في عملية البحث العلمي والفلسفي، وقد أثرت أفكاره في العديد من الباحثين والفلاسفة، مما دفعهم إلى تجديد الفكر العلمي والفلسفي، وتعزيز التنوع والحرية في التفكير العلمي. فما هي أبرز معالم المقاربة الفيرابندية؟ وفيما تتبلور أبرز مقولاتها، وبالجملة، معطياتها؟ وماهي حدودها وآفاقها؟

إن الإجابة عن هكذا أسئلة هو ما سنقف عنده في الفصل الثاني، من مذكرتنا هذه معتمدين في ذلك على أعمال "فيرابند" بالدرجة الأولى.

الفصل الثاني

المقاربة الفوضوية عند بول فيرابند

أولا: مناهضة المنهج

أ. مفهوم المنهج

ب. التعددية المنهجية

ثانيا: الدفاع عن وفرة النظريات

أ. مفهوم النظرية العلمية عند "بول فيرابند"

ب. مبادئ النظرية العلمية عند "فيرابند"

ب.1. مبدأ وفرة النظريات

ب.2. مبدأ اللامقايسة

ثالثا: التوجه النسباوي عند "بول فيرابند"

رابعا: المعرفة العلمية والنشاطات الأخرى (أو انتقاد العلم وسلطته)

خامسا: حدود المقاربة الفيرابندية وآفاقها

تمهيـــد:

تعتبر نظرية "فيرابند الفوضوية" إحدى أهم المقاربات المطروحة على مستوى فلسفة العلم المعاصرة، فقد تميزت بجرأتها وأصالتها ومواقفها الرافضة للعقلانية، وأحادية المنهج والداعية إلى تعدد المناهج وتنوع النظريات، ولقد شكل النقد عند "فيرابند" منطلقا أساسيا لإعادة النظر في التصورات السائدة في فلسفة العلم، التي تقر بالمنهج الواحد والوحيد كسبيل لبلوغ الحقيقة، وترسيخ هذا التصور في الفكر الإنساني وهنا، تتموقع الإبستيمولوجية الفوضوية، وتبزغ كإطار لتحرير الإنسان من أوهام الأحادية وأصنامها، سواء تحت مسمى المنهج أو باسم النظرية. فهل تمكنت هذه الإبستيمولوجيا من تجاوز الطروحات الإبستيمولوجية والانفتاح على آفاق أرحب؟ وإلى أي مدى ساهمت الفوضوية الفيرابندية في معالجة المشكلات العلمية والمنهجية، وحتى الإنسانية المطروحة؟

هذا ما سنحاول أن نتبينه من خلال هذا الفصل، بالوقوف مع أبرز المعالم والأفكار التي ترتكز عليها الفوضوية الفيرابندية، ولنبدأ بـ:

أولا. مناهضة المنهج:

أ. مفهوم المنهج:

من المعروف أن الباحث الذي يهدف إلى تحصيل المعارف والحقائق العلمية يفرض عليه إتباع منهج ما، لذلك نتساءل ما المنهج؟ وماهي أهم الخطوات الواجب اتباعها؟

إن المنهج من حيث دلالته اللغوية والاشتقاقية هو «الطريق الواضح والمستقيم، والسلوك البين، الذي يقضي بصحيح النظر فيه، إلى غاية مقصودة بسهولة ويسر».[1]

ويعود أصل لفظ المنهج لغة إلى الجذر نهج وأنهج، ونهج نهجا يعني: اتخذ منهاجا، أو طريقا للوصول إلى غاية، ونهج الطريق نهوجا بمعنى: وضح واستبان، وصار نهجا واضحا بينا

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني من (ط) إلى (ي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص20.

ونهجته وأنهجته: أوضحته وسلكته، الطريق الناهجة هي الطريق المستقيم، والمنهاج هو الطريق المستمر،[1] والمنهج في حد ذاته فهو عبارة عن: «طريق نصل من خلاله إلى نتيجة معينة».[2]

انطلاقا من هذا التعريف يتضح أن المنهج هو الطريق أو الأسلوب الذي يعتمد عليه الباحث لبلوغ المعرفة والحقائق، كما يعرفه المعجم الفلسفي [هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء، أو عمل شيء طبقا لمبادئ معينة، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة»،[3] أي تلك الطريقة التي ينتهجها الباحث ليصل إلى هدف معين من خلال اتباعه لمجموعة من القواعد والإجراءات ليصل إلى أهدافه المسطرة.

وتأتي كلمة (منهج) كترجمة للكلمة الفرنسية (méthode) ونظائرها في اللغات الأوروبية الأخرى، وترجع جميعها في النهاية إلى الكلمة اليونانية (Methodos)، والتي تعني الطريق الذي يؤدي إلى الهدف المتوخى التوصل إليه. وقد استعملها أفلاطون وأرسطو بمعنى "البحث" أو "النظر' أو"المعرفة"، ورغم التاريخ القديم للفظ "منهج" إلا أن معناه الاصطلاحي لم يتحدد إلا في أواخر القرن السابع عشر، وهنا اكتسب معناه الدلالي على أنه الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة.[4]

وتعني الكلمة بشكل أصلي "الطريق" أو "المنهج" الذي يؤدي إلى الغرض المراد، ولكنها لم تأخذ معناها الحالي الذي يعني مجموعة من القواعد المصاغة للوصول إلى الحقيقة في العلم.[5]

وإذا كان المنهج قد أخذ معنى التقصي والبحث عند اليونان، فإنه أصبح في العصر الحديث يطلق على مجموعة القواعد التي تؤدي إلى تحصيل الحقائق، حيث يعرفه لالاند على

1- يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مؤسسة الهنداوي، (د، ت)، (د، ب)، 2015، ص24.

2- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الأول، ترجمة خليل أحمد خليل، ط2، 2001، ص803.

3- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص12.

4- عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، شارع فهد سالم، الكويت، ط3، 1977، ص30.

5- محمد محمد قاسم، كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1986، ص77.

أنه: «برنامج ينظم مسبقا سلسلة عمليات ينبغي إكمالها، وتدل على بعض الأخطاء الواجب تجنبها، بغية بلوغ نتيجة معينة»،[1] وبذلك نستطيع القول أن المنهج أسلوب بحث يضم في كيانه مختلف العمليات الإجرائية الخاصة بإتباع المعرفة خصوصا، ولكن يجب الانتباه إلى أن المنهج لا يخص فن العمليات العقلية فقط، بل لديه أيضا علاقة بالممارسة العملية، بحيث يمكن أن يحمل طابعا حسيا لاسيما فيما يتعلق بالتجريب ومسائل الخبرة وهو ما يمكن القول بشأنه: «مجموعة الأساليب الذهنية والحسية الموصلة إلى الحقيقة أو الصالحة للبرهنة عليها»،[2] حيث يصبح المنهج لا قيمة له إلا من خلال عملية فعلية نافعة.

إن فكرة المنهج تمثل النسق المركزي للمعرفة القديمة، حيث كانت الميتودولوجيا تُعتبر جزءً من الفلسفة المعرفية، وتشمل المناهج العلمية العمليات العقلية والخطوات العملية التي يقوم بها العالم من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل اكتشاف الحقائق وإثباتها. ونظرًا لاختلاف مواضيع العلوم، تختلف مناهجها أيضًا، لذا لا يمكن الحديث عن منهج عام للعلوم، بل فقط عن مناهج علمية محددة، وبالتالي المنهج هو الطريقة التي يتبعها الباحثون لاكتشاف الحقائق في مجالات العلم، ويعتمد على مجموعة من القواعد التي تحكم عملية التفكير وتحديد الخطوات التي يجب اتخاذها للوصول إلى نتائج، سواء كانت هذه القواعد عقلية أو تجريبية.[3]

لكن رغم هذه الأهمية البالغة للمنهج والذي بفضله تظهر مذاهب فلسفية ونظريات علمية مختلفة، هناك من الفلاسفة من استخدم المنهج بطريقة ضمنية ولم يصرح بها «في مناهج لم يخصها صاحبها بحديث عنها أو خطاب في المنهج»،[4] وخير دليل على ذلك "سقراط" صاحب المنهج التوليدي، لم يتكلم عنه ولم يصرح به عكس الفلاسفة الذين أقاموا حديثا طويلا على مناهجهم مثل "ديكارت" و"هيجل" و"ماركس"...الخ.

1- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص1249.

2- الطاهر مشقف، مناهضة المنهج عند فيرابند، مرجع سابق، ص64.

3- عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص5.

4- الطاهر وعزيز، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1990، ص33.

ومن جهة أخرى هناك من صرح بوجود منهج ودافع عنه بصفة مطلقة، ورفض بقية المناهج الأخرى مقدسا منهجه بأنه الوحيد القادر على بلوغ الحقائق واستخلاص المعارف العلمية اليقينية، ولعل أبرزهم الوضعيين والتجريبيين والمناطقة، وذلك بفضل إعطائهم السلطة المطلقة فقط للتجربة، وكل ما هو حسي واقعي رافضين اعترافا ببقية المناهج الأخرى بالرغم من أهميتها.[1]

إن هذا الموقف الذي تمسك به هؤلاء، جعل بعض الفلاسفة يعيدون النظر في هذه النقطة، أي القول بأنه لا يوجد إلا منهج واحد ووحيد لاستيعاب الوجود وتحصيل المعرفة، ومن هنا يظهر الفيلسوف "فيرابند"، محاولا رد الاعتبار لجميع المناهج الأخرى، والاعتراف بقدرتها على تحصيل المعرفة والبحث العلمي، فما هو المنهج عند "فيرابند"؟ وكيف نظر إلى المناهج الأخرى؟

ب. التعددية المنهجية:

تأثرت فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين تأثرا عميقا بالتطور العلمي، خاصة بالثورات العلمية، التي جعلت فيلسوف العلم المعاصر يعيد النظر في الكثير من الأسس النظرية والمنهجية، التي ظلت لقرون مهيمنة على العلم، وتعد من البديهيات التي لا تقبل النقد أو النقاش، وكان مفهوم المنهج أشد المفاهيم عرضة لهذه المراجعة النقدية، ويمكننا القول أن "فيرابند" كان أكثر الفلاسفة إسهاما في التحول الذي شهدته فلسفة العلم المعاصرة، خاصة بنقده اللاذع للمنهج وثورته ضده، فقدم لنا قراءة جديدة للعلم، وعمل على إعادة النظر في هذا الأخير، وفي علاقته بالمعارف الأخرى، فأصبح ثائرا على كل النظريات المعروفة في الحقل الفلسفي العلمي، من خلال زعزعته الثقة في كل ما هو مطلق وثابت في العلم، ليغدو معارضا لكل مناهجه ورفض أن يكون للبحث العلمي منهج واحد، كونه معاديا للأحادية، مؤمنا بالمقابل بالتعددية المنهجية ومدافعا عنها باستماتة.[2]

1- الطاهر مشقف، مناهضة المنهج عند فيرابند، مرجع سابق، ص66.

2- حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فيرابند، مرجع سابق، ص285.

إن ما يميز حقا موقف "فيرابند" عن مواقف معاصريه في فلسفة العلم، هو أنه عمل نقل مجال البحث من التساؤل عن المنهج الملائم الأنسب للبحث والأكثر دقة وموضوعية، إلى التساؤل عما إذا كان هنالك منهج ثابت وكلي لابد من اتباعه لفهم الواقع العلمي المعقد.[1]

لقد رفض "فيرابند" وجود منهج علمي كلي وثابت[2]، وهذا ما عبر عنه في مقال نشره سنة 1970م بعنوان (ضد المنهج) وفيه تخلى نهائيا على النزعة البوبرية التكذيبية، ليتبعه بعمل هام تمثل في أول كتاب له في تطوير مقاله السابق، ليحوله إلى أول كتاب له صدر سنة 1975، وجاء في عنوانه الكامل موسوما بـ (ضد المنهج*: خطاطة لنظرية فوضوية في المعرفة)، ترجم إلى حوالي سبعة عشر لغة حتى عام 1994، وكان "فيرابند" ينوي عرض أفكاره الأساسية في مجال فلسفة العلم، ثم يقوم "لاكاتوس" بالرد عليه في نفس الكتاب، غير أن الوفاة المفاجئة لـ"لاكاتوس" عام 1974 حالت دون إتمام ذلك المشروع.[3]

وتتخذ التعددية المنهجية في فلسفة العلم المعاصر عدة ملامح نذكر منها:

إن العلم أصبح ممكنا دون أن يكون هناك خبرة علمية، ودون أن يتقيد بقواعد منهجية فالعلم بفضل التعددية المنهجية أصبح له طابعه الإنساني والاجتماعي، الذي من خلاله يحقق التقدم والتطور العلمي،[4] والتعددية المنهجية التي يدعو إليها "فيرابند" تعددية تؤمن بوجهات النظر المختلفة، والبدائل النظرية المتعددة، وكل الأفكار والفروض، والنظريات التي من شأنها أن تفيدنا في توسيع نطاق معرفتنا.[5] أي أنها تؤمن بمختلف المعارف، والبدائل الأخرى على غرار العلم، التي من شأنها أن تقدم لنا وجهات نظر جديدة تفيد البحث العلمي.

1- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص159.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*- ينقسم كتاب ضد المنهج إلى جزئين أساسيين، يعالج الجزء الأول قضايا ابستيمولوجية ومنطقية، أما الجزء الثاني فيتعلق ببعض النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة على الجزء الأول، انظر: بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص09.

3- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص09.

4- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص ص13، 14.

5- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص164.

لقد أضحى العلم يتقدم من خلال استعانته بهذه المعارف، وما تقدمه له من نظريات جديدة، دون أن يتقيد بمنهج واحد ووحيد، حيث يقول "فيرابند": «ليس "ثمة منهج علمي"، إذ لا يوجد إجراء وحيد، أو مجموعة من القواعد التي تشكل أساسا لكل نموذج بحث، وضمانا لأن يكون بحثا علميا، ومن ثم لأن نضع ثقتنا فيه، فكل مشروع وكل نظرية، وكل إجراء إنما يخضع في الحكم عليه: إلى أهليته الخاصة ... إذ إن فكرة منهج كلي راسخ والتي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة إنما هي فكرة غير واقعية...».[1]

وعليه فقد رفض "فيرابند" فكرة تأسيس المعرفة العلمية على منهج واحد، معتبرا أن التقدم في المعرفة يأتي من خلال التعددية المنهجية، أي وجود مجموعة متنوعة من الأساليب والأنماط التفكيرية. ويرى أن هذه التعددية تسمح للأفراد بإظهار قدراتهم وإمكانياتهم وتفتح أمامهم مجال البحث. إذ يعتبر أن الانتماء إلى منهج واحد صارم يدعي اليقين هو عائق أمام التقدم العلمي، حيث يعتقد أن معظم القواعد التي يدافع عنها علماء وفلاسفة العلم، ويعتبرونها شكلا تنظيميا للمنهج التعليمي إما أن تكون عديمة النفع أو ضعيفة.[2]

وعلى هذا الأساس يدعو "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، التي يعتبرها السبيل الأمثل لتحقيق التقدم في العلم والمعرفة، ذلك لأن وحدة الرأي، ووحدة المنهج تؤدي إلى كبح الخيال وإعاقة العلم، والحد من القدرات الإبداعية للإنسان، كما أن وحدة الرأي كما يقول "فيرابند" قد تكون مناسبة للكنيسة والضعفاء والراغبين في اتباع أحد المستبدين أو الطغاة، لكن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية.[3]

كما قدم "فيرابند" حججًا لرفضه للمنهج الواحد القائم على قواعد ومعايير ثابتة، منها أنه غير منطقي أن نعتبر كل نظرية علمية جديدة نتيجة اشتقاقية من نظريات سابقة ناجحة، وأننا

1- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص ص 112،113.

2- المصدر نفسه، ص113.

3 - P. Feyerabend : contre la méthode, op cit. p 46.

لا ينبغي أن نعتبرها تقريبًا أو تعليمًا ملائمًا لتلك النظريات، لأن التقدم العلمي يتطلب ابتكار تصورات جديدة تمامًا. وأن العلم ظاهرة معقدة وليس نسقا بسيطا منظما، فكل وضعية علمية واقعية هي وضعية معقدة، تنمو بكيفية غير قابلة للتوقع ولذلك فإنه من العبث أن نتمنى العثور على منهج يمكنه أن يدل العالم العقلاني في سياق معين فيما إذا كان عليه أن يتبنى النظرية (أ) برفضه للنظرية (ب)، أو العكس يتبنى النظرية التي تتطابق مع وجهة نظر استقرائية تطابقا أفضل مع وقائع أو ظاهرة معترف بها، ورفض النظرية غير المتوافقة مع وقائع متداولة، هاتان القاعدتان هما من القواعد التي لا تتوافق واللحظات التي جرت العادة بتحديدهما وتعيينهما على اللحظات البارزة في تاريخ العلم.[1]

وفي هذا الإطار يحاول "فيرابند" أن يبين لنا زيف المشروع المعرفي لفلسفة العلم الحديثة، من خلال هجومه على المنهج ووقوفه ضد كل المعايير التي يفرضها العلماء والمناطقة في البحث، حيث يرى في هذه المعايير نوعا من التقييد، وعرقلة للحرية الفردية، فمثل هذه القوانين والتعهدات، ليست من شأنها إلا أن تعيق مسيرة التقدم العلمي.[2]

هذا ويرى "فيرابند" أن مفهوم المنهج ليس واحدا حتى انتهى إلى أنه لا تحديد لمثل هذا المفهوم أصلا وذلك في كتابه الشهير "ضد المنهج" الذي أكد فيه أن العلم لم يكن أبدا أسير منهج واحد بل هو مشروع فوضوي لا يعترف بأي سلطة، وكل المناهج يمكن أن تجدي فيه، تبعا لشعار "فيرابند" الشهير (كل شيء مقبول) وانكب على تأكيد التعددية المنهجية فكل منهج مقبول طالما يلائم طبيعة المشكلة المطروحة للبحث ويؤدي إلى حلها وإضافة الجديد للعلم.[3]

إن المعرفة التي ينشدها "فيرابند" ليست حلقات من سلسلة النظريات المتوافقة التي تتجه إلى الصدق.[4] حيث يقول: «إن العقلانية التي أنشدها ليست الوصول إلى نظرية مثالية، إنما بالأحرى زيادة محيط البدائل، واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن

1- آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص135.

2- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص45.

3- يمني طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مرجع سابق، ص119.

4- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص164.

وأصبحت في طي النسيان، لأنها ربما يكون بها عنصر مثالي يقيد معرفتنا»[1]؛ أي أنه يؤكد بضرورة التحرر من قيود المنهج، وذلك بمزج المعرفة العلمية بالمعارف الإنسانية الأخرى، كالأسطورة والفن والدين، فتنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية ، وواجب على رجل العلم أن يأخذ بتعدد النظريات ويوسع مجال بحثه، فلا ينحصر في معرفة معينة، لأن الصرامة والثبات والانتظام يقللان من قوته النقدية.[2]

ويمكن القول أن السؤال عن المنهج عند "فيرابند" هو سؤال زائف فليس للعلم منهج خاص يمكن تحديده مسبقا والبحث في المنهج عبث لا طائل من ورائه، ومن جهة أخرى فإن رفض "فيرابند" للمنهج الواحد وتبنيه للتعددية المنهجية والنظرية كان الهدف منه تخليص العلم من كل القيود والمعوقات التي كبلته بها الميتودولوجيات المعيارية من جهة والرغبة في أنسنة ظاهرة العلم من جهة أخرى «فالتعددية ليست مهمة للميتودولوجيا فقط بل أيضا تشكل جزء أساسيا للنظرة الإنسانية».[3]

ثانيا. الدفاع عن وفرة النظريات:

أ. مفهوم النظرية العلمية عند فيرابند:

توصف النظرية العلمية بأنها نموذج للمعرفة العلمية، وتعتبر موضع اهتمام العديد من فلاسفة العلم الكلاسيكيين والمعاصرين، فليس هناك فيلسوف علم إلا وله تصوره الخاص عنها، ونجدها في التصور المعاصر تدل على افتراض مسبق، يحدد رؤيتنا للعالم.[4]

ولهذا يرى في "فيرابند" أن النظرية العلمية، ليست سوى افتراض مسبق يحدد نظرتنا وإدراكنا للعالم والإنسان، وإن مصطلح النظرية العلمية في نظره يختلف على ما هو متعارف في الاتجاهات العقلانية الكلاسيكية والنقدية، إذ أن معظم هذه الاتجاهات قد فشلت في دراسة

1- P. Feyerabend: contre la méthode, op.cit. p p 50,51.

2_ بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص 7.

3- P. Feyerabend, contre la méthode, op.cit. p.54.

4- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص15.

النظريات العلمية ومعالجتها من جهة، وعجزها عن التعبير عما يحدث داخل العلم من جهة أخرى.[1]

يوضح لنا "فيرابند" أن نظرية المعرفة العلمية الغربية، هي نظرية أداتية، تهدف إلى عقلنة الممارسة العلمية، والسيطرة على الطبيعة والإنسان معا، وحجته في ذلك أنها نظرية ذاتية، تعطي الأولوية للذات الغربية، التي ترى العالم من خلالها فقط،[2] إن هذا التصور يوضح مدى تسلط هذه الاتجاهات، حيث – في نظره– العلم أداة لخططها ومعتقداتها الإيديولوجية، حيث توجه كل الاهتمام نحو المعرفة العلمية جاعلة منها نظرية مرتبطة بالخبرة والتجربة، وفي المقابل قام رواد تلك الاتجاهات بإلغاء كل المعارف الإنسانية، مصنفين إياها ضمن المعارف الخالية من المعنى لكونها لا ترتقي إلى مستوى العلم، إلا أن "فيرابند" لم يأخذ بهذا التوجه، فكان ضد كل منهجية، جازما بأن المعرفة العلمية هي جزء من النشاط الإنساني، وأن النظريات العلمية في نظره وليدة اكتشافات إنسانية، لها خلفيتها الاجتماعية، ولا يمكن أن تدرس بمعزل عنها، حيث يقول: «إن مشاريع العلم هي بصورة حاسمة إنجازات إنسانية... العلم بعد كل شيء إنه نشاط إنساني... لذلك فكل العلوم هي علوم إنسانية... فلا يمكن تعيين خصائصها بمعزل عن الثقافة الإنسانية والتاريخ الإنساني»،[3] وعليه يرى "فيرابند" أن النظريات العلمية، ليست سوى طرائق معينة في النظر إلى العالم، وحسب اعتقاده، فإن طريقة النظر إلى الكون تختلف من ملاحظ إلى آخر، وهذا الاختلاف يرجع إلى تنوع المعارف والاعتقادات، وتعدد النظريات وفروض الملاحظة ذاته تتغير من عالم إلى آخر، فما يراه الملاحظ في جانب كبير منه يتوقف على تجربته الماضية، ومعارفه وخبراته، وحالته العامة، أي أن العالم أثناء دراسته للنظرية العلمية، يعتمد على خبرته الشخصية ومعتقداته وثقافته الإنسانية، فهذا الجانب الذاتي جزء من العالم لا يستطيع إنكاره أو فصله عن الظاهرة العلمية.[4]

1- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص123.

2- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص11.

3- نقلا عن: يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص433.

4- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص15.

وبهذا يعطي "فيرابند" تصورا جديدا للنظرية العلمية، يعارض فيه التصورات العقلانية فيقول: «عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية، والمذاهب الدينية...»؛[1] بمعنى أنه اعتبر النظريات العلمية لا تقتصر على ما هو علمي فقط، بل تشمل كذلك المعارف الإنسانية، لأنها تقدم معرفة لا يمكن إنكارها، وإن تعدد النظريات واختلاف وجهات النظر، مفيد للعلم وحافز للإبداع والابتكار، ولهذا نجده يؤكد على أهمية الأساطير في مقابل النظريات العلمية، ويرى أنها أكثر صدقا وتقدما، وهي تعتبر كأحد المنابع الأساسية للعلم، وإنه يساوي بين العلم والأسطورة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيفضلها على المعرفة العلمية حيث يكتب في هذا الصدد قائلا: «إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء في كافة العصور، وأن[مبتكري] الأسطورة الأوائل بدأوا الحضارة بينما اكتفى العلماء بتغييرها، وليس إلى الأفضل دائما»،[2] هذا القول تصريح واضح لفيرابند، يؤكد فيه على دور التاريخ الإنساني في التطور العلمي، وأن النظريات العلمية لا يمكنها أن تتقدم إلا إذا اتبعت التعددية المنهجية وكرست التنوع المعرفي.

ب. مبادئ النظرية العلمية عند فيرابند:

ب.1. مبدأ الوفرة:

إن مبدأ الوفرة يؤمن بتعدد البدائل النظرية، وتنوع وجهات النظر الأخرى، ويشمل على – حد تعبير – "فيرابند" إبداع وتطوير نظريات لا تنسجم مع وجهات النظر المقبولة، حتى ولو كانت عالية التأييد وتحوز موافقة قبولا شاملين.[3]

إن الإقرار بزيادة محيط البدائل النظرية في المعرفة العلمية، لا يمثل عائقا أمام تقدم العلم، بل هو المبدأ الأمثل لدراسة العلم واستيعاب مسيرته، من خلال استخدام نظريات بديلة ومتعددة تعمل على تطوير قدراتنا العقلية.[4]

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص22.

2- المصدر نفسه، ص31.

3- المصدر نفسه، ص22.

4- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص123.

ولهذا يدعو "فيرابند" إلى ضرورة الأخذ بأكبر قدر ممكن من النظريات، حتى إذا كانت هذه الأخيرة غير متسقة ولا متناغمة مع بعضها بعض، فلكل واحدة منها أنصار مدافعون عنها، يعتقدون بصحتها، وأن هذا الاختلاف ما بين النظريات، يسمح بتنامي وجهات النظر، وتنوع البدائل، التي تساعد في الإدلاء بتفسيرات مختلفة للمعرفة العلمية، من شأنها أن تفيد معرفتنا، وتقدم حلول للحقيقة والعالم.[1]

ويستخدم "فيرابند" كلمة النظرية ليدلل بها على معاني عديدة بصورة عمومية، لتشمل المعرفة الإنسانية، حيث يقول: «عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية، والمذاهب الدينية...».[2]

وما يمكن أن يستفاد من هذا القول أنه دعوة صريحة إلى ضرورة الأخذ بأكبر عدد من النظريات، لأن في نظره كل نظرية من الممكن أن تكون مفيدة بصورة أو بأخرى، فقط يجب ترك مساحة لها لتثبت نفسها ولتتبلور في صورة تسمح لها بالتقدم، وإن مبدأ الوفرة وتعدد البدائل النظرية هو المبدأ الأفضل للعلم، في حين أن الاتساق والانتظام يحدان من قدرته النقدية ويعيقان الإبداع والابتكار، فالمعرفة العلمية ليست سعيا نحو صورة مثالية، بل هي الزيادة باستمرار في محيط البدائل.[3]

ووصلا بما سبق فإن العلم – من منظور فيرابند– لا يتقدم وفقا لمنهجية صارمة، وإنما يتقدم عندما يتوفر على أكبر قدر من البدائل النظرية، ولهذا يرفض التمييز والمفاضلة بين النظريات، بدعوى أن كل شيء مقبول ومتاح في النظرية العلمية، مادامت أي فكرة تقدم حلول للمشاكل المطروحة في العلم، وإن تلك الأفكار الأكثر سخافة والتي لا ترتقي للعلم، كما تعتقد العقلانية التجريبية، هي الأكثر مفاجئة بحيث من الوارد جدا أن تؤدي إلى اكتشافات عظيمة، وهذا ما يترجمه في نصه الذي جاء فيه: «إن الذين يعتقدون أن الأشياء الجديدة لا تكشف إلا

1– بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص22.

2– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3– حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص123.

بالتفكير ضمن مسار محدد مخطئون... "ولهذا فإن أي شيء يصلح" تعني فقط "لا تحد من مخيلتك"، لأن فكرة سخيفة جدا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة قوية جدا [وإلى اكتشاف جديد]».[1]

إن مبدأ الوفرة في النظريات هو مبدأ أساسي في العلم يجب الاعتماد عليه، حيث يقيد الاتساق والانتظام قدرة العلم النقدية. إذ يرى "فيرابند" أن المعرفة العلمية تتطلب زيادة مستمرة في البدائل، حيث إن جميع النظريات، حتى التي تبدو غير منطقية، قد تحتوي على عناصر خيالية تسهم في تطوير المعرفة إن موقفا كهذا يعتبر وجهة نظر جديدة في فلسفة العلم، حيث يفتح للعقلانية الباب أمام كل البدائل التي قد تسهم في تقدم العلم، حتى لو كانت الأفكار غير معقولة أو الآراء تافهة أو ضعيفة. وبهذا، يختلف "فيرابند" عن "كارل بوبر"، حيث يؤمن بأن العلماء لا يجب أن يتخلوا عن نظرياتهم بمجرد تعارض بعض الوقائع معها، كما يدّعي بوبر.[2]

كما أن "فيرابند" لم يرفض المنهجيات الموجودة، وإنما طالب بتوفرها كلها في البحث العلمي، هو فقط عمل على مناهضة فكرة وحدة المنهج، وفي المقابل فتح المجال أمام جميع المناهج والطرائق للتعبير عن نفسها، وهذا ما تأكده عبارة "كل شيء جائز" التي تعني أن كل شيء مقبول، وكل المناهج متاحة طالما تفيد البحث العلمي، وهو ما يوضحه بقوله: «إذا تأملنا التاريخ الماضي، فسوف نجد أنه في مقابل كل قاعدة نريد الدفاع عنها، توجد ظروف يتحقق فيها التقدم بكسر هذه القاعدة، وهذا يعني أن مناهج البحث تقدم لنا في أحسن الأحوال قائمة مشوشة من القواعد التقريبية، وأن المبدأ الوحيد الذي يمكن أن نثق فيه في كل الظروف هو كل شيء يمر»؛[3] أي أن هذه القواعد التي يدعي العلماء صرامتها وضرورة التقيد بها في العلم هي زائفة ولا أساس لها، لأنها لا تقدم للبحث العلمي جديدا، وإنما هذه المبادئ والمعايير من شأنها أن تنقص وتقلل من قيمة العلم ونتائجه الموضوعية، فتاريخ العلم يثبت أنه يجب تجاوز هذه القواعد وعدم الأخذ بها حتى نصل إلى الحقيقة العلمية حيث يقول: «مهما بدت لنا قواعد

1- بول فيرابند، طغيان العلم، مصدر سابق، ص210.

2- حمدان بوصاليح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص127.

3- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص21.

المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية، فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد، وإنما تبني عكسها».[1]

ومن وجهة نظر "فيرابند" فالمبدأ الوحيد الذي يمكن الدفاع عنه تحت أي ظرف هو مبدأ "كل شيء جائز" لأنه لا يكبح تقدم العلم فهو يعبر عن التعددية المنهجية، هذه التعددية التي ينشدها تقدم وجهات نظر مختلفة، وتأتي بالبدائل المعرفية، حيث يقول: «إن العقلانية التي أنشدها... إنها بالأحرى زيادة محيط البدائل واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن بعيد وأصبحت في طي النسيان، لأنها ربما يكون بها عنصر يفيد معرفتنا».[2]

وهو ما يعني أن "فيرابند" يؤكد على ضرورة التحرر من قيود المنهج، فلابد أن تمتزج المعرفة العلمية بالمعارف الإنسانية الأخرى، كالأسطورة والفن والدين والتنجيم...، فتنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، إذ يفتح مجال البحث أمام أنماط وأساليب تفكير جديدة ومختلفة تساهم في عملية بناء معرفتنا، ولهذا يجب على رجل العلم أن يأخذ بتعدد النظريات، ويوسع مجال البحث ليشمل كل شيء فلا ينحصر في معرفة معينة، فالصرامة والثبات والانتظام جميعها تضعف من قوته النقدية، وهو ما نستدل عليه من قوله : «يمكن أن تكون تجريبيا طبيبا، [أو فيلسوف علم متفتح]، فقط إذا هيأت نفسك للتعامل مع نظريات متعددة بدلا من وجهة نظر واحدة... فالتعددية النظرية ... سمة جوهرية لكل معرفة تعلن أنها موضوعية».[3]

إن "فيرابند" يدعو العلماء أثناء دراستهم للنظريات العلمية أن يتحرر من سجن القواعد التي يفرضها عليهم فلاسفة العلم، وفي المقابل يعتمدون على التعددية المعرفية، كما يشير إلى أن المناهج العلمية القائمة في فلسفة العلم لم يتوصل أي منها إلى حقيقة التقدم العلمي، مؤكدا أنه من الخطأ رد العلم إلى بعض القواعد الميتودولوجية البسيطة، نظرا لتعقد تاريخه، فالمنهج على مدى مساره التاريخي تعرض للنقد والتبديل والتغيير من قبل الفلاسفة، فإنه من العبث إخضاع العلم لقواعد «إن الفكرة القائلة بأن العلم يمكنه وينبغي أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص12.

2- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص44.

3- بول فيرابند، العلم في مجتمع الحر، مصدر سابق، ص07.

وشمولية هي في آن واحد فكرة مثالية وزائفة... فإن فكرة كتلك مضرة بالعلم لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تأثر تأثيرا حقيقيا في التغيير العلمي، لأنها تجعل علمنا أقل قابلية للتكيف وأكثر دوجماطية...».[1]

إن دعوة "فيرابند" ضد أحادية المنهج، وكذا أحادية النظرية وهي دعوة صريحة، كانت نتيجة تفكير عقلاني نقدي متميز، هي دعوة صريحة تهدف إلى تحرير العلم من سلطة المفاهيم والتصورات التي تحكم سيطرتها عليه، لأنه ارتأى أن مسار العلم لا يتقدم وفقا لهذه الصرامة المنطقية والثبات المنهجي، في حين إذا خضع إلى التعددية المنهجية يعدوا أكثر علمية وموضوعية، فالتعدد هو سمة العلم، وحجته في ذلك أن تاريخ العلم يبين أن أكثر فترات العلم ازدهارا هي تلك التي عرفت تعددا وتباينا في الرؤى والمناهج، وبالتالي فتعدد الطرق والمناهج يجعل البحث العلمي موضوعيا، ويظهر هذا في قوله: «... والطريقة التي تشجع التنوع هي الأسلوب الوحيد الذي يتوافق مع الرؤية الإنسانية».[2]

لقد سعى "فيرابند" إلى جعل العلم مستوعبا لكل المناهج، لأن طبيعته تستوجب تطبيق مناهج متعددة، لهذا دعا إلى ما يسمى بالميتودولوجيا المفتوحة، التي تعبر بإخلاص عن طبيعة العلم وحقيقته الفوضوية، كما أنها لا تقصي المعارف الإنسانية، وإنما تضعها داخل دائرة العلم، فيستقي منها ما يشاء في حدود ما يلائم المشاكل المطروحة في النظريات العلمية.[3]

هذا وننوه أن "فيرابند" ينادي ويطالب بالتشبث بالنظريات حتى وإن كانت تواجه صعوبات مؤكدا على ضرورة الإبقاء على جميع النظريات القادرة على تقديم تنبؤات جديدة، والتمسك بها على الرغم من التحديات التي تعترضها مبررا هذا النداء بمنحها فرصة لإثبات فعاليتها وخصوبتها رافضا قرار التفنيد والطعن فيها، بمجرد ظهور حالات تناقضها مثلما ينادي به "بوبر".[4]

1- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص45.

2- بول فيرابند، طغيان العلم، مصدر سابق، ص21.

3- حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فيرابند، مرجع سابق، ص 288.

4- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص22.

ب.2. مبدأ اللامقايسة:

يقصد باللامقايسة* ذلك الاعتقاد بأن النظريات العلمية لا يمكن مقارنتها بعضها بعض، ولا وجود لسبب في تفضيل نظرية على أخرى، وإن فكرة اللامقايسة فكرة أصيلة، تعبر عن ملامح الفكر المبدع الخالق، وتستخدم لتعليل افتقاد التفاهم بين الثقافة العامة والعلم، ولا يجعل "فيرابند" اللامقايسة مقتصرة فقط في النظريات فحسب، بل أيضا يسحبها على الأنماط المعرفية الأخرى، فليس هناك مبرر للإدعاء بالأفضلية المطلقة للعلم على أشكال المعرفة الإنسانية الأخرى.[1]

لقد كان لـ "فيرابند" الفضل في تأسيس مفهوم اللامقايسة، إذ أن جانبا كبيرا من الأفكار السائدة للمفهوم الفلسفي عند "كون" يرجع إلى معالجات "فيرابند" في هذا الموضوع،[2] ويشترك في ذلك مع "كون" وفي ذلك يقول: "فيرابند" «... وقد اعتبرها كون–اللامقايسة– خاصية هامة من خصائص التغير العلمي، واعتبرتها نفحة من هواء ساخن أطفئ بعض الشموع الوضعية المشتعلة»،[3] فإذا كان "كون" قد اعتمد اللامقايسة كخاصية للتقدم العلمي، وبدافع التبرير الفلسفي للثورات العلمية، الذي تتعاقب فيه النماذج الإرشادية، فإن "فيرابند" كان هدفه نقد نظرية "التفسير والرد" التي تبنتها الوضعية المنطقية، وفي ذلك يقول: «أردت من هذا التصور [اللامقايسة] نقد وجهة نظر شائعة ومضللة في التفسير والردreduction ولكي أنتقد تلك الفكرة كان علي أن أشير إلى خاصية تميز التغير العلمي لا تشملها عملية التفسير والرد وأطلقت على هذه الخاصية اسم "اللاقياسية" واللاقياسية، في اعتقادي، لا تشكل صعوبة للعلوم...ولكنها تشكل صعوبة لبعض النظريات المغرقة في السذاجة».[4]

---

* اللامقايسة: تعني فقدان المقاييس الموحدة بين كيانين، وأصل الفكرة من فقدان القياس بين الحساب والهندسة، عندما ظهر لدى الإغريق أن قانونا هندسيا لا يمكن التعبير عنه بحساب بدقة، انظر: بناصر البعزاتي، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2007، ص166.

1– يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص416.

2_ بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص9.

3– المرجع نفسه، ص232.

4 المرجع نفسه، ص229.

يرى "فيرابند" أن وفرة النظريات المتنافسة والمتعارضة أو غير المتسقة هي التي تحقق للعلم التقدم، فكل شيء في تصوره ينبع من اللاإتساق، إذ يعتبره القاعدة الأساسية لقبول أو رفض النظريات العلمية، ومن ثمة يدعو إلى ضرورة الأخذ بالنظريات اللامتسقة وجعلها القاعدة الأساسية عند تزكية أي نظرية علمية أو نبذها.[1]

وقد انطلق "فيرابند" في دراسته اللامقايسة من خلال علاقة الملاحظة بالنظرية، فدلالة المفاهيم التي تستعملها النظريات العلمية تتوقف بالدرجة الأولى على السياق النظري، الذي ترد فيه، وبالتالي فمعنى الملاحظات يتغير بتغير النظريات التي تؤولها، والأساس الذي ترتكز عليه النظريات ليس ثابتا فالنظريتين المتنافستين لا تشتركان في حدود الملاحظة وبسبب هذا التباعد يستحيل الاستنباط المنطقي لنتائج احدى النظريتين، مما يؤدي إلى انعدام القدرة على المقارنة بينهما.[2]

إن ما يقوله "فيرابند" عن عدم قابلية النظريات العلمية للمقايسة، يمثل احدى النقاط الهامة في تحليله للعلم، وسمة أساسية في اللاعقلانية العلمية التي ينشدها، وهي لا تمثل أي مشكلة للعلوم المختلفة أو لسواها، وإنما تجعل العلم في تقدم مستمر ولا تحد من قوته النقدية.[3]

ويقدم "فيرابند" أمثلة من تاريخ العلم، لإظهار جدوى اللاقياسية من بينها اللاقياسية التي نجدها في الميكانيكا الكلاسيكية والميكانيكا النسبية، فالموضوعات الفيزيائية حسب الميكانيكا الكلاسيكية لها شكل وكتلة وحجم، وهي ملازمة لها، ويتم تعديلها إثر تفاعل فيزيائي، في حين أن النظرية النسبية لم تعد تأخذ صفات الشكل والكتلة والحجم، بل تأخذ معنى العلاقات، ولكل منها أسس تستند عليها.[4]

ويستدل كذلك بابستيمولوجية "جون بياجي" من خلال دراسته "بناء الواقع لدى الأطفال"، التي ترتكز على أن معرفة الطفل تمر بمراحل تكوينية متنوعة قبل أن يستقر في مرحلة معينة،

---

[1]– بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص23.

[2]– آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص137.

3– خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص25.

[4]– آلان شالمر، نظريات العلم، مرجع سابق، ص137.

وبناء على هذه الفكرة وصل "فيرابند" إلى التساؤل الآتي: «إذا كان تطور مراحل الإدراك عند الطفل يمر بمراحل لا تقبل القياس الواحدة مع الأخرى، فهل من المعقول الاعتقاد أن هذا النوع من التغيرات المفاهيمية والإدراكية يحصل في مرحلة الطفولة فقط؟ أليس من الأكثر واقعية افتراض أن تغيرات أساسية تفرض منطقيا "اللامقايسة" تكون ممكنة، وأنها يتوجب أن تشجع من أجل ألا نبقى دوما بعيدين عما يمكن أن يكون مرحلة أسمى من المعرفة والوعي؟»[1]

ويرتبط مفهوم اللامقايسة عند "فيرابند" باللغة، إذ ليست هناك لغة واحدة لكافة النظريات، ولا توجد لغة محايدة يمكن وصفها عن طريق الجمل والألفاظ، ففشل الترجمة من لغة إلى لغة يعود بالأساس إلى تغير الطريقة التي ترتبط بها الحدود مع بعضها بعض، كما أن لكل لفظ مرجعيته الفكرية والثقافية والتاريخية.[2]

وهكذا يعتبر "فيرابند" أن فكرة "اللامقايسة" أساسا يعتمد عليه في تحليله للعلم، وفي انتقاداته للتصورات العقلانية التي تسعى إلى تأويل وتفسير مسيرة العلم عقلانيا، يقوم على الاتساق والنظام والوحدة، واللامقايسة لا –حسب فيرابند– لا تتعارض مع الممارسة الفعلية للعلم «فهي تمثل مشكلة بالنسبة للفلاسفة وليس للعلماء، فالفلاسفة يصرون على إثبات المعنى من خلال تفكير استدلالي، بينما العلماء فهم واعون بأن تكلم لغة أو تفسير حالة ما، يعني في الوقت نفسه إتباع مجموعة قواعد وتغييرها». [3]

ثالثا. التوجه النسباوي عند بول فيرا بند:

تعد النسبية إحدى أهم الاتجاهات المعاصرة في فلسفة العلم، التي شنت حملة ضد كل التصورات والمفاهيم التي تدعي موضوعية العلم، فتسعى إلى تقويض كل ما هو مطلق في العلم، ويعتبر "فيرابند" أحد أبرز الفلاسفة النسبيين متأثرا بالنزعة النسبية، إذ يرى أن العلم فوضوي لا يخضع للنظام، ولا يعتمد على المطلقية والموضوعية، لأن المعرفة تختلف وتتعدد من شخص إلى آخر، وكما سبق لنا الذكر أن "فيرابند" قد استقى فكرة النسبية من

1- P. Feyerabend, contre la méthode, op.cit. p p253,254

2- حمدان بوصاليح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص129.

3- Paul Feyerabend, Adieu la raison, Op.cit, P310.

"بروتاغوراس" لأنها تهتم بفكرة تعدد القيم، والتقاليد دون أن ترفض رؤية الفرد الذاتية،وهي تشكل محور فلسفته التي ما يكف يرددها في مؤلفاته، ويتضح هذا الجانب النسبي في قوله: «المعرفة الكلية غير ضرورية وغير متاحة، وكل ما هو متاح وجهات نظر مختلفة، تكون صادقة من بعض الجهات فقط، ولا وجود لأي آراء لا ترتبط بتقليد معين».[1]

وهو ما يعني أن المعرفة لا يمكن أن تكون موضوعية ومطلقة، لأنها في أغلب الأحيان ليست متاحة، إذ ليس كل ما يطرحه العلم متأتيا، بل أن ما هو متوفر إنما يعكس مجموعة آراء مختلفة، يمكن أن تكون صادقة في بعض جوانبها، وإن مجمل آرائنا لا ينفصل عن معتقداتنا ومعرفتنا الإنسانية، فالعلم هو نشاط إنساني، وأن نسبية "فيرابند" تنكر كافة المعايير الكلية والموضوعية، فالحكم على نظرية علمية ما بأنها صادقة أو كاذبة، هو حكم يتغير من جماعة علمية إلى جماعة أخرى ، وفي المقابل يدعو"فيرابند" إلى تنوع القيم وتعدد المعارف، فليس ثمة علم أفضل من علم، بل أن كل المعارف مفيدة طالما أنها تقدم جديدا للعلم، وهذا ما عبر عنه في فلسفته حيث أنكر أفضلية العلم وتميزه عن بقية أشكال المعرفة الأخرى، واعتبره تقليدا معتبرا إياه تقليدا من بين التقاليد الأخرى.[2]

كما اهتم فلاسفة العلم المعاصرين بفكرة النسبية، حيث يميل جلهم إلى عدم اعتبار المعارف العلمية مطلقة، وكان "توماس كون" صاحب مهندس فكرة البراديغم، من الذين وصفو بالتوجه النسباني وجدير ذكر أنه يعتبر أن الأحكام العلمية نسبية في علاقتها بالنموذج المعمول به، وبالتالي لا يمكن للحكم أن يتجاوز النموذج بل يبقى محصورًا في إطاره كما أيضا يعتبر البراديغمات تحوز على الطابع النسبي في علاقتها ببعضها من منطلق رفضه عقد المقارنة بينها بحجة عدم قبولها للمقايسة، لأنها جميعا تظل متكافئة لحصولها على صفة البراديغم، ويقدر كون أن النماذج ليست دقيقة لدرجة يمكن استبدالها بسهولة بسلسلة من القواعد مع أن

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص26.

2- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص50.

"كون' من أنه يستعرض هذه النظرية بأنها طريقة تاريخية وسوسيولوجية، فإننا نجد أن "فيرابند" استلهم النزعة النسبية من "كون" وآخرين مما خلف أثرا عميقًا على فلسفته.[1]

إن أبحاث "فيرابند" في مجال فلسفة العلم تبين بوضوح تمسكه القوي بالنسباوية، حيث يرفض قواعد المنهجية والتصورات العقلانية التي تقيد حرية الإنسان في البحث جازما. بأن المفاهيم الأساسية كالموضوعية والعقلانية والمنهج، هي مفاهيم نسبية تتغير بين النماذج والنظريات، وتختلف معانيها حسب السياق، وبذلك تكون كل النظريات مفيدة وناجعة، وتتساوى في قيمتها طالما أنها تسهم جميعها في خدمة العلم، وعليه فلا مجال للمفاضلة بينها.[2]

إن دعوة "فيرابند" للنسبوية ترتبط بتفتحه على تقاليد المجتمع وعاداته، حيث يؤمن أن العلم لا يمكنه استبعاد التجارب الأخرى التي قد تحمل قيمة ومعرفة مهمة تفوق أحيانًا أهمية العلم الحالي.وهذا ما يجعل النسبية تعكس تلاحمها مع العلم، إذ تفتح مجالًا لأساليب جديدة للمشاركة فيه إن عقلية "فيرابند" ترحب باللامعقول وتتمثله كجزء من الحقيقة، مما يعني تقديره للتناقضات والتغيرات المنطقية والمصادفات التي قد يجلبها اللامعقول، معتبرا أن العقل المتفتح هو الذي يمكنه التفكير في الأمور غير المعقولة، وأنه ليس كبتًا بل حوارًا مع اللامعقول،[3] ويؤكد "فيرابند" على أهمية الاحترام والاستفادة من تجارب الحياة جميعًا، بما في ذلك تلك التجارب التي قد تبدو غير معقولة، ويعارض العقلانية المؤدلجة التي تدعم مواقف معينة على حساب آراء أخرى.

كما أن "فيرابند" يشير إلى أن الحضارة الغربية قد أضفت صفة الشرعية على العقل، ويرى أن هذا التصور هو مجرد إيديولوجية تعبر عن وجهة نظر معينة ويذهب إلى التأكيد على أن الأفكار والممارسات هي بالأساس نسبية، ولا تعد نتاجًا حصريًا للعبقرية الغربية بل كانت موجودة من قبل في حضارات أخرى مثل الصينية، وتطورت في المجتمعات الإفريقية، مما

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص188.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- أدغار موران، من أجل عقل متفتح، نقلا عن محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، العقلانية وانتقاداتها، دار توبقال دار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص39.

يظهر تنوع الحياة في العالم. مقدرا أن النسبية تدفعه ليعارض العقل الذي يدعي احتكار معرفة الحقيقة، ويؤمن بأن العقل المتفتح هو الذي يقبل بجميع التجارب الإنسانية، نافيا وجود مبرر موضوعي لتفضيل العقلانية الغربية والإعلاء من شأنها على حساب غيرها من العقليات والتقاليد الأخرى.[1]

ومما يجدر التنويه به أن فلسفة "فيرابند" النسبوية تفتح المجال أمام كل الاتجاهات الفكرية، حيث تعطي الفرصة لكل الأفراد والجماعات للمشاركة، على عكس العقلانية التي تحصر النقاش في إطار محدد. ومن هنا، فإن "فيرابندا" ينفي الادعاء أن العقلانية تكون معيارًا للتحقق بواسطة الحواس، كما ينفي أيضًا الفكرة البوبرية التي تعتقد أن الحقيقة تنحصر في إطار العقلانية الغربية.[2]

وعلى هذا الأساس وانطلاقا من هذه القناعة، فإن "فيرابند" يقر بأهمية الثقافات على اختلافها كنشاط إنساني يعكس تجارب وخبرات تفيد البشرية كافة، ويعتبرها مصدرًا للتقدم والتجديد في المعرفة حاثا على تشجيع التعامل مع جميع المعارف، بما في ذلك تلك التي قد تكون بدائية، من أجل تشييد تصورات جديدة قائمة على التعددية. مرتئيا بأن النسباوية فلسفة إنسانية تناهض التوحيد والتنميط، وتعتمد على تنوع الثقافات الإنسانية واستيعاب التنوع وتقبله في السلوك المعرفي للإنسان.[3]

لقد استثمر "فيرابند" الكثير في دراسة تاريخ العلم، ليظهر فعالية النسباوية وأهميتها، إذ بفضل ظهور نظرية النسبية وخصوصا نظرية " الكوانتا " بأبحاثها في مجال علم المتناهيات الصغرى، وأبحاث "هايزنبارغ" التي أعادت النظر في المسائل العلمية اليقينية، بدأت الشكوك تحوم حول حقيقة العلم. بما جعل كثيرين يصلون إلى استنتاج مشترك مفاده أن العلم لا يمكنه استيعاب كل المعارف وضمها إلى رؤيته المنطقية، بل ينبغي أن ينفتح على المسائل

1- Paul Feyerabend, Adieu la raison, Op.cit, P27.

2- جون كتنغهام، العقلانية، فلسفة متجددة، مرجع سابق، ص166.

3- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول عند فيرابند، مرجع سابق، ص191.

الأنطولوجية وأسرار الوجود الإنساني، مع ضرورة مراعاته بخصوص الثقافات الأخرى دون إقصاء أو تهميش.[1]

كما تشير النسباوية بصورة عامة، بما في ذلك فلسفة "فيرابند" إلى وجود تحولات استراتيجية في فلسفة العلم نابعة من التعددية. هذه الفكرة تتطور تماشيًا مع الممارسات الإبستمولوجية، حيث تظهر التعددية في المناهج والتصورات داخل البناء العلمي هذا النهج دفع "فيرابند" لمحاولة توسيع نطاق البحث إلى مجالات اللامعقول. ولما كانت نسباوية "فيرابند" تعتمد على تمجيد التعدد وعدم الاعتراف بالنسقية والنمطية الواحدة، فهي ترى أن المعرفة العلمية قادرة على استيعاب كل التقاليد المعرفية والاستفادة منها، وهي جزء لا يتجزأ من تطور الممارسة العلمية والحضارة الإنسانية، فوفقًا لـ "فيرابند" تعد جميع التقاليد بما في ذلك العلم، قابلة للتغيير المستمر والدائم، وهذا ضروري لحركية وتطور المعرفة العلمية التي لا تعرف الثبات أو اليقين المطلق، فالعلم نتاج لتضافر مجموعة من القيم والتقاليد التي تشكل نسيجًا اجتماعيًا.[2]

ويمكن القول أن الفوضوية المعرفية عند "فيرابند" ماهي إلا صورة جديدة من صور النزعة النسبية،[3] وهذا يتضح في مؤلفاته، حيث يصف نفسه بالنسباوي المتحمس، وإن نسبيته مختلفة عن النسبيات الأخرى، إذ يقول: «إن النسباوية التي أقدمها هنا ليست عن المفاهيم concepts، وإنما عن العلاقات الإنسانية human relations، إنها تتعامل مع المشكلات التي تنشأ عن صراع الثقافات المختلفة أو الأفراد مع العادات والأذواق المختلفة».[4]

ويؤاخذ "فيرابند" بهذا القول العقلانيين الذين ابتعدوا عن الحياة، إلى عالم المعرفة الميكانيكية، فهم لا يأخذون في الحسبان هذه الثقافة أو تلك، مركزين جل اهتماماتهم على

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول عند فيرابند، مرجع سابق، ص191.

2- Paul Feyerabend, Adieu la Raison, Op.cit., P29.

3- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة مصدر سابق، ص26.

4- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص51.

الأفكار كفكرة الحقيقة والصدق والموضوعية، ولا يتساءلون أبدا كيف تتصل هذه الأفكار بالوجود الإنساني، إنهم فقط يحاولون جعل الممارسة العلمية أكثر عقلانية.[1]

إن جل الأبحاث العلمية التي أنجزها "فيرابند" في ميدان فلسفة العلم، تؤكد بشكل قطعي نزعته النسبية، ما يفسر رفضه كل القواعد المنهجية وتصورات العقلانية التي تقيد حرية الإنسان في البحث، فالمفاهيم التي يسعى فلاسفة العلم لإثباتها والدفاع عنها كالموضوعية والعقلانية والمنهج، كلها مفاهيم نسبية، لأنها متغيرة من نموذج لآخر ومن فيلسوف إلى فيلسوف، مما يجعل معانيها تتباين وتتفاوت حسب مدلولها السياقي الذي وردت فيه، وكل النظريات نافعة فلا وجود لنظرية أحسن من أخرى، وعليه لا مجال للمفاضلة بينها طالما أنها جميعا متاحة لخدمة العلم.[2]

رابعا. المعرفة العلمية والنشاطات المعرفية الأخرى (أو انتقاد العلم وسلطته):

في منتصف القرن العشرين، كان التصور السائد للعلم يتمثل في البحث المنهجي المنظم عن المعرفة، وقد تميز هذا النوع من البحث بمنهجيته الدقيقة التي جعلته يختلف عن أنماط المعرفة الأخرى التي اعتبرها فلاسفة العلم تفتقر إلى التنظيم والثبات وفقاً لهذه النظرة، كان المنهج هو العنصر الثابت والأساسي في كل معرفة تسعى لأن تكون علماً هذا التقليد الصارم الذي أرساه الفلاسفة والعلماء هيمن على فلسفة العلم بشكل قوي، مما جعل العلم يبدو وكأنه منعزل عن كافة المعارف الإنسانية الأخرى.[3]

إن القدسية والسيطرة التي اكتسبها العلم، بالإضافة إلى التناقضات والتحولات التي شهدتها فلسفة العلم، دفعت الفيلسوف المعاصر إلى إعادة تقييم مبادئ العلم ونتائجه وقوانينه، لتكون أكثر توافقاً مع خدمة الإنسانية، وقد تجلت هذه الحاجة في إبستيمولوجيا "بول فيرابند"، التي جاءت لتعترض على كل المنهجيات التي عرفتها الفلسفة المعاصرة. فـ "فيرابند" لم يكتف بمعارضة هذه المنهجيات، بل ذهب إلى حد الطعن في مصداقية العلم ذاته كيف ذلك؟، إنه

1- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص51.

2- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص18.

3- خالد قطب، التعددية المنهجية، مرجع سابق، ص51.

ومن وجهة نظره، فإن العلم يعتمد على مسلمات خاطئة لا سيما، في اعتباره أن الخطاب العلمي هو الخطاب العقلاني الوحيد، وأن رأي العلماء هو الوحيد السديد والموثوق به، وأن العلم والتكنولوجيا قادران على حل جميع مشاكل الإنسانية.[1]

لقد انتقد "فيرابند" الاعتقاد السائد بأن المعرفة العلمية تمتلك سلطة مطلقة، مشيراً إلى أن هذا الاعتقاد يؤدي إلى إهمال جوانب أخرى من المعرفة الإنسانية التي يمكن أن تكون ذات قيمة كبيرة بالنسبة له، ويجب أن يكون هناك تنوع في طرق البحث عن الحقيقة، وألا يُنظر إلى العلم باعتباره الوحيد القادر على تقديم حلول للمشاكل المعقدة التي تواجه البشرية. وفي هذا السياق قدم "فيرابند" رؤى جديدة حول كيفية تقييم المعرفة العلمية وتحديد مكانتها ضمن مجموعة أوسع من المعارف الإنسانية، داعياً إلى تبني نهج أكثر شمولية وتنوعاً في البحث عن الحقيقة.[2]

وعليه فقد عارض "فيرابند" بشدة التصور السائد في المجتمع المعاصر الذي جعل من العلم تقليداً راسخاً وإيديولوجيا شاملة تحظى بحماية ودعم المؤسسات الرسمية (السياسية) [لقد أصبح العلم بمثابة أيديولوجيا، حيث تتسابق الدساتير القانونية لحمايته، مما أدى إلى إقصاء جميع أنماط المعارف الأخرى، وجعل العلم نشاطاً متميزاً ومتفوّقاً على باقي النشاطات الإنسانية. هذا الأمر أدى إلى تضخم العلم وسيطرته على كل شيء، حتى أصبح وحشاً كاسراً يقتحم حياة الإنسان، لذا علينا كبح جماحه قبل أن يتحكم في السلوك البشري ويكمّمه]،[3] ويعبر هذا عن اعتراض واضح على العلم ومقاوم لشوكته، نظرا لما ترتب عن ممارساته من آثار خطيرة (التلوث، زيادة الأمراض وانتشار الأوبئة، استغلال اختراعات العلم في الحروب...الخ)، وما يحمله من تهديدات محدقة(مثلا: الاحتباس الحراري وما أفرزه من تغير للمناخ، ثورة الذكاء الاصطناعي...الخ)، ليس مستبعدا أن تؤدي إلى إلغاء الثقافة الإنسانية وسيطرته الكاملة على حياة الإنسان.

1- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص116.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فيرابند، مرجع سابق، ص291.

كما يرفض "فيرابند" فكرة تفوق العلم على باقي التقاليد والممارسات الإنسانية، مؤكدًا أن العلم ليس أرقى شكل من أشكال المعرفة الإنسانية، بل هو مجرد تقليد من بين تقاليد أخرى متعددة، مشددا على أن العلم يشكل نشاطًا إنسانيًا يتفاعل مع النشاطات غير العلمية ويستفيد منها.[1]

إن "فيرابند" يقدم وجهة نظر مهمة حول العلم ومكانته في سلّم المعرفة الإنسانية، مرتئيا أن العلم ليس معرفة مقدسة يجب على الجميع اتباعها بلا تحفظ، بل هو مجرد إحدى طرق المعرفة العديدة التي يمكن أن تخضع للتصحيح والتطور وهذا معناه أن العلم يمكن أن يكون عرضة للخطأ والتصحيح، وأنه يجب أن يتلاءم ويتطور مع تقدم المعرفة والتطور العلمي «إن العلم ليس نظاما مقدسا، يستلزم الكفر بما عداه، بل هو نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، إنه شكل من أشكال عديـدة للمعرفة»،[2] بمعنى، أن العلم مثل أي معرفة بشرية أخرى، لا يتميز عنها بأي شيء يجعل منه يرجحها ويتوفق عليها إنه جزء من إنجازات البشر، وهو أحد أنواع المعرفة الإنسانية العديدة التي تشكل ثقافته وتبلور معتقداته وتعيد هيكلتها والتأثير عليها، تماما مثلما تفعله القطاعات المعرفية الأخرى.

ويعلق "فيرابند" بسخرية على ما هو شائع في المجتمع، إذ من النادر أن نجد شخصا يشكك في أفضلية العلم وتفوقه على باقي المجالات، حيث يقول: «... وهنا تجد العلماء وفلاسفة العلم يتصرفون مثلما يتصرف المدافعون عن الكنيسة الرومانية الواحدة والوحيدة فالمذهب الكنيسي صحيح، وكل ما عداه وثني وبلا معنى... وكان هذا التوجه ذات يوم كنوزا للخطابة الدينية، وقد وجدت لها الآن موطنا جديدا في العلم».[3]

ويعارض "فيرابند" هذا التوجه ويرى أن العلم ليس كتابا مغلقا لا يمكن استيعابه إلا بعد سنوات من التدريب، وإنما هو نظام عقلي، بالإمكان اختباره وانتقاده من قبل أي شخص معني

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص168.

2- يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مرجع سابق، ص119.

3- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص87.

بالأمر، أما صعوبة العلم المزعومة، فذلك يعود إلى الحملة المنظمة التي يشنها الكثير من العلماء لإدخال الخوف والرعب في نفوسنا.[1]

إن ما يجعل العلم يتفوق على باقي المجالات المعرفية الأخرى، مبعثه خطأ فادح يتمثل في أننا نفاضل بين العلم وبين باقي المجالات على أساس معايير ذاتية، لكن تاريخ العلم نفسه يؤكد أن العلم لم يتفوق بسبب نتائجه ولا بسبب منهجه فنحن نعلم ما يؤديه العلم لكن ليست لدينا أدنى فكرة عما إذا كان في مقدور تقاليد أخرى أن تؤدي أفضل منه.[2]

ومن أجل ذلك وبسبب، وبسبب منه، يصف "فيرابند" العلم كنظام عقلاني، يجب أن ينمو ويتطور وسط باقي أنظمة المعرفة الإنسانية، يعني هذا أن العلم ليس مجرد مجموعة من الحقائق الثابتة، بل هو مجال ديناميكي يحتاج إلى التجديد والتطور المستمر.[3] ومختصر القول، أن "فيرابند" ينظر إلى العلم على أنه جزء من تراث المعرفة الإنسانية، ولا يمثل النهاية المطلقة للحقيقة. إذ يجب فهمه وتقديره كجزء من نظام متعدد الأبعاد للمعرفة الإنسانية، وينبغي أن ينمو ويتطور بها ومعها.

إن "فيرابند" يشير إلى أن الاعتقاد بتفوق العلم على باقي أشكال المعرفة الإنسانية هو تقليد مبالغ فيه، ويعتبر أن ميدان العلم يقدم معرفة ذات قيمة، مثلما تفعل المعارف الإنسانية الأخرى كالفن والأساطير والتنجيم. وبالتالي، يجدر بنا فهم كل نمط من أنماط المعرفة بشكل دقيق قبل الحكم عليه، وعدم اعتبار أي نمط غير علمي دون دراسة مستفيضة له، كما يرى أن العلم هو جزء من تراث المعرفة الإنسانية ولا يمثل الطريقة الوحيدة لحل مشاكل الإنسان، فقد تكون الأنماط الفكرية البديلة مثل الدين والأساطير والمعتقدات الشعبية أيضًا مصدرًا للحلول.[4] وهو ما يعني، أنه يرفض جميع التيارات الفلسفية التي تسعى إلى عقلنة الممارسة العلمية،

1- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص173.

2- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص121.

3- يمنى طريف خولي، مفهوم المنهج العلمي، مرجع سابق، ص119.

4- شادلي هواري، إشكالية تطور وأزمة المنهج، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2010-2011، ص128.

بحجة أن العلم هو أفضل أنواع المعرفة، مع أنه لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب المعرفة البشرية المتعددة.

لذلك، يرفض "فيرابند" القول بأن العلم أفضل من باقي التقاليد الإنسانية الأخرى، فهو لا يشكل أعلى شكل من أشكال المعرفة الإنسانية، فالعلم نشاط بشري مرتبط بالأنشطة غير العلمية التي تتفاعل معها وتستفيد منها.[1]

ويؤكد "فيرابند" أن ما يميز العلم عن باقي المجالات المعرفية الأخرى مبني على مغالطة، حيث نفضل العلم على أساس معاييره الخاصة مثل الموضوعية والصدق واليقين والمنهج العلمي، ومع ذلك يظهر تاريخ العلم أنه لم ينفصل عن باقي المجالات بسبب نتائجه أو منهجه، بل لأننا لا نعرف إذا كانت التقاليد الأخرى –غير العلمية– قد توفر فوائد أكبر بكثير أم لا.[2]

إن امتياز العلم وتفوقه على باقي النشاطات المعرفية الإنسانية الأخرى، يبرره المدافعون عن هذا الرأي بالارتكاز على دعامتين أساسيتين، الدعامة الأولى تعتمد على اعتقادهم بأن نتائج العلم مستقلة تمامًا ولا تتأثر بأي فعاليات غير علمية، بينما الدعامة الثانية تتمثل في رأيهم بأن العلم يمتلك منهجًا علميًا ثابتًا يعتمد على مجموعة من القواعد الصارمة.[3]

غير أن "فيرابند" لا يمنح العلم الأفضلية والامتياز، بسبب النتائج التي حققها في جميع مجالاته. فهو يعتقد أن هذه النتائج تعتمد إلى حد كبير على معارف غير علمية تم اكتشافها في السابق، والتي لا تنتمي إلى مجال العلم. ويستشهد بالثورة الكوبرنيكية كمثال، حيث استلهم "كوبرنيك" أفكاره من الفيلسوف الفيثاغوري "فيلولاوس"، الذي اعتنق أفكاره ودافع عنها بعد تجاوزه لقواعد العقلانية السائدة والحس المشترك. فيلولاوس كان فيثاغورياً وصوفياً، مما يظهر عمق الفلسفة والمعرفة غير العلمية التي أثرت في تطور العلم.[4]

1- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص119.

2- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص121.

3- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص173.

4- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص119.

لهذا، يعارض "فيرابند" فكرة امتياز العلم عن باقي المعارف، معتبرًا أن العلم ليس أكثر أهمية أو تميزًا من السحر والشعوذة أو التنجيم، بل هو جزء من التقاليد الأخرى في المجتمع، وفوق ذلك يستند إلى تاريخ العلم ليظهر أن فكرة وجود منهج علمي ثابت لا يوجد ما يبرره، إذ حققت العديد من النظريات العلمية تقدمًا عندما تخطت وانتهكت المناهج الثابتة في عصرها.[1]

ولذا يرى "فيرابند" أنه لا توجد حجة قاطعة تبرر الدور الاستثنائي للعلم وامتيازه عن غيره من المعارف ويشير إلى أنه عندما يتم نقد جميع التقاليد، فإن العلم غالبًا ما يُستثنى من هذا النقد، حيث يُمكن للمجتمعات الغربية الآن أن تنتقد ما تريد، باستثناء العلم.[2]

إن النتائج التي توصل إليها العلم في كافة مجالاته، لا تعطيه الأفضلية والتميز، ذلك لأنها تدين بشكل كبير إلى المعارف غير العلمية، التي هي نتاج معارف إنسانية قديمة لا تنتمي إلى ميدانه، حيث يقول: «... فنحن نعلم أن الطب العشيري البدائي، والطب الشعبي، والأشكال التقليدية للطب في الصين والتي لا تزال قريبة الصلة برؤية الحس المشترك للإنسان والطبيعة، لديها في الغالب وسائل أفضل للتشخيص والعلاج من الطب العلمي، كما أننا نعلم أيضا أن الأشكال "البدائية" للحياة قد ساهمت في حل مشكلات الوجود الإنساني التي تعتبر بعيدة المنال بالنسبة إلى المعالجة العقلانية»،[3] وهنا، يدافع "فيرابند" بوضوح على دور المعارف الإنسانية، لما تحمله من آراء، ومعارف هادفة لا يمكن لفلاسفة العلم إنكارها، فالمعتقدات الشعبية والخبرات الإنسانية لا يمكن تجاهل أدوارها في تحقيق تقدم العلم والدفع به نحو الأمام.

يذهب "فيرابند" إلى أنه لا يوجد شيء في العلم يستبعد المعارف الإنسانية لأن الأسطورة والشعوذة لها نفس دور العلم بل تتساوى معه، فهو ضد كل من يميز بين العلم والمعارف غير العلمية، مؤكدا على دور الأساطير في مقابل النظريات العلمية، لدرجة اعتبارها أكثر صدقا وتقدما منها. وفي هذا الصدد كتب يقول: «إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة

1-حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص173.

2- P. Feyerabend, contre la méthode, op.cit. p.340.

3- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص79.

أفضل من إنجازات العلماء في كافة العصور وأن مخترعي الأسطورة الأوائل بدأوا الحضارة، بينما اكتف العلماء بتغييرها وليس إلى الأفضل دائما»،[1] بمعنى، أنه يؤكد على أهمية المعارف الإنسانية بمختلف صورها، ويجزم بأن المعارف التي توصلنا إليها لا تتوفر فقط في المعارف العلمية، ولا تكون مقتصرة عليها وحدها. إنه الوفاء للفوضوية (أي التعددية) التي يتبناها "فيرابند" ويرافع لصالحها.

لقد ساوى "فيرابند" بين العلم والأسطورة، وذلك في قوله: «العلم والأساطير يتشابكان بشكل أو بآخر»،[2] وكما سبق الذكر، يهدف "فيرابند" إلى تعزيز حرية الفكر في المجتمع وبالتالي، السعي لتمكين المجتمع من اختيار الأساليب والطرق المختلفة لبلوغ المعرفة، وقد عزم "فيرابند" في ذلك الوقت على استعادة الاحترام للأسطورة، ووجد أن العلم يسود في كل مجال ويحتل مكانة فريدة في المجتمع مدعوما في ذلك بثقل الدولة وسلطتها، وهو ما ليس متأتيا للفاعليات الأخرى بما يستوجب–حسبه– أن يكون العلم منفصلاً عن الدولة تماماً، كما تم الفصل بين الدولة والكنيسة، لأن العلم اعتُبر الأيديولوجية الأكثر تحديثاً وعدوانية من المؤسسات الدينية، وهذا يعني أن التعليم المدرسي والجامعي، لا يمكن أن يقدم أي ظاهرة أو حدث إلا بموافقة العلم، وهذا برأي "فيرابند" ليس في العمق سوى أسطورة اليوم،[3] الأمر الذي دفعه لأن يحتج على هذا الوضع «لا يكتفى فقط بعرض تاريخي مجرد للظواهر والمبادئ الفيزيائية (الفلكية والتاريخية، الخ) لا يقال: بعض الأشخاص يعتقدون بأن الأرض تدور حول الشمس بينما يعتبر البعض الأرض كرة غائرة توجد بداخلها الشمس والكواكب والنجوم الساكنة يقال: تدور الأرض حول الشمس والباقي كله سخافة».[4]

وبهذه الطريقة يعتبر "فيرابند" أن تعليم الفلك أو السحر له مؤثرات مماثلة للفيزياء وعلوم الفضاء، حيث يروي بأننا لا يجب أن نميّز فقط علماً واحداً ونهمل تراثنا الثقافي، وقد عبّر عن

1– بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص31.

2– جون فرانسوا دورتي وآخرون، فلسفات عصرنا، تياراتها، مذاهبها، أعلامها، قضاياها، ترجمة: إبراهيم صحرواي، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط1، ،2009، ص ص325،324.

3– المرجع نفسه، ص325.

4– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

هذا بصراحة، عندما قال: «العلم لم يتفوق بنتائجه، فنحن نعلم ما يؤديه العلم، لكن ليست لدينا أدنى فكرة عما إذا كان في مقدور تقاليد أخرى أن تؤدي أفضل منه بكثير أم لا، ولذا يتعين علينا أن نبحث عن ذلك».[1]

ونظرًا لذلك ينوه "فيرابند" بالأديان والخرافة والأساطير وعلم التنجيم وفلسفة السحر والفنون وغيرها من الأنماط الثقافية الأخرى[2]، وفي نظره من الممكن بشكل كبير تحقيق المعرفة بدون الاعتماد على المناهج العلمية، ويرى أن هناك أفكارًا قديمة لا تزال قائمة، ولكنها غير كافية لتحقيق الغرض المطلوب، وحتى الآن، تحافظ هذه الأفكار على التوازن الداخلي للمجتمعات والارتقاء بها، مثل العلاج الشعبي والوخز بالإبر والعلاج بالأعشاب والحجامة، دون الحاجة إلى مناهج علمية،[3] «وقد أدى هذا إلى المزيد من الأبحاث وإلى اكتشاف العديد من "المدارس" الطبية التي تحتوي كل منها على معرفة غير متاحة للعلم. وقد تكون هذه المعرفة ذات طبيعة عملية فقط، ولكنها قد تتضمن أيضا قدرا لا بأس به من المكونات النظرية، وتتبدى أهمية النظريات في أنها تبين لنا أن العلم ليس هو الطريق الوحيد لاكتساب المعرفة...».[4]

والملاحظ أن "فيرابند" لا يعطي الأفضلية للعلم، على الرغم من إنجازاته. وهذا واضح من قوله: «... فلو كان العلم يمتدح بسبب إنجازاته إذن لكان يتعين أن تمتدح الأسطورة مائة مرة وبحماس أكبر، لأن إنجازاتها كانت أعظم بما لا يقاس، إذ أن مبتدعي الأسطورة أنشأوا ثقافة في حين عمل العقلانيون على تغييرها تماما، ولن يقدموا في أغلب الأحوال أفضل منها».[5]

وهذا ما دفع "فيرابند" لاستكشاف أشكال أخرى من المعرفة، حيث يقدم لنا في كتابه (العلم في مجتمع حر) النتائج التي توصل إليها عن طريق التخلص من تعظيم المناهج، كما يعترف

1- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص121.

2- الطاهر مشقف، مناهضة المنهج عند فيرابند، مرجع سابق، ص125.

3- علي هري، البرمجة عند "إمري الكاتوش"، مرجع سابق، ص265.

4- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص178.

5- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص119.

بأنه من الممكن أن تمتلك أي معرفة، حتى لو كانت مكتسبة من خلال المنهج العلمي، بواسطة مصادر وفي مواطن أخرى.[1]

ومن هذا المنطلق، نجد أن الاعتراف بدور التقاليد الأخرى في تحقيق النظريات، يكاد يجزم بأن «... مايحدث في الكون ككل والأسطورة بكل تأكيد، أكثر تقدما من بعض الأفكار العلمية النقدية الأكثر تعقيدا و"عقلانية"»،[2] لأن بحسب رأي "فيرابند"، فهذا يشير إلى أن الأفكار العلمية والنقدية يمكن أن تؤثر سلباً على التلاحم الاجتماعي، في حين أن فكرة مرتبطة بالأساطير قد تلعب دورا إيجابياً في تعزيز العلاقات الاجتماعية.[3]

ومن خلال أمثلة لشخصيات "كروبوتكين"* و"هنري ابسن"** و"ليفي ستروس"، يوضح "فيرابند" كيف أن العلم يُعامل بشكل مختلف ويُستثنى من النقد الذي يُوجه للتقاليد الأخرى. وبهذا يرى "فيرابند" أن العلم ليس أكثر أهمية من بقية التقاليد الاجتماعية والثقافية.[4]

يرى "فيرابند" أن العلم لا يُعتبر نظامًا معرفيًا وجب تقديسه، بل هو جزء من التقاليد المعرفية الأخرى التي يجب أن يتفاعل معها ويتطور بها ومعها لافتا "فيرابند" إلى أن الطب الشعبي والأشكال التقليدية للطب في الصين، على سبيل المثال، قدمت وسائل أفضل في بعض

1- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص120.

2- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص180.

3- الطاهر مشقف، مناهضة المنهج عند فيرابندة، مرجع سابق، ص135.

*- **بيتر كروبوتكين (1842-1922)**، كان عالم جيولوجيا، وكاتب سياسي روسي، اشتهر باهتمامه بالفلسفة السياسية، واعتبر اسمه بمثابة الرمز في الفلسفة الأناركية. تأثر بأفكار تشارلز داروين حول التطور والانتقاء الطبيعي، وقام بتطوير نظرية التضامن كبديل للصراع الدائر في الطبيعة، وركز على الفكرة التعاونية في الحياة الاجتماعية (انظر بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة و إنتقادها ، مرجع سابق، ص174).

- **هنريك إبسن (1828-1906)، كاتب ومسرحي نرويجي، يُعتبر واحدًا من أبرز الشخصيات الأدبية في العصر الحديث، وقد تميزت أعماله بالتركيز على الوعي الفردي، والصراع الداخلي، والبحث عن الذات. تأثرت أعماله بالثقافة الأوروبية، وخاصة الأدب اليوناني الكلاسيكي، وتناولت مواضيع مثل الشجاعة، والمسؤولية الاجتماعية، والحب. انظر: حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص174.

4- P. Feyerabend, contre la méthode, op.cit. p.340.

الحالات من الطب العلمي كما يُشيد بالأساطير كونها بناءً هامًا يمكن تطويره إذا تم ربطها بسياقها الزماني والمكاني.[1]

ويرى "فيرابند" أن التمييز الذي وضعته الإبستيمولوجيا بين العلم واللاعلم وأشباه العلم غير مبرر، وأنه يجب علينا الاستناد إلى كل الأفكار والمناهج لفهم الطبيعة والتحكم في بيئتنا، معتبرا أن هذا التمييز هو من صنع الحضارة الغربية، وأنه لم تكن هناك منافسة عادلة بين العلم والثقافات البديلة الأخرى، بسبب تفوق رسل العلم وسدنته في طمس هذه الثقافات وتشويهها، مثلما نتبينه في قوله: «فقد اختفت أو تدهورت هذه الأساطير، وهذه الديانات، وهذه التصرفات ليس لأن العلم كان أفضل،ولكن لأن رسل العلم كانوا مظفرين وذوي عزيمة أكثر، ولأنهم طمسوا بنوع أخص حاملي الثقافات البديلة...».[2]

هذا، ويُشير "يرابند" إلى دور المستشرقين في طمس المعالم الثقافية البديلة لصالح الحركة الاستعمارية وسياسة العولمة الحديثة مما جعل العالم يعيش في ظل استبداد نموذج ثقافي غربي مهيمن.[3]

وعليه فمن نافلة القول، أن المجتمع الإنساني يتوفر على أنشطة وتقاليد متعددة إذ لا يمكن اختصار نشاطه فيما يقوم به العلماء فقط ولذا فالتمييز بين العلم وباقي الأنشطة هو وهم لا أكثر، فليس للعلم أي خاصية تجعله أفضل من الشعوذة والسحر والتنجيم لأنه ليس إلا تقليدا من تقاليد مجتمعنا.[4]

خامسا. حدود المقاربة الفيرابندية وآفاقها:

يعد "فيرابند" من أبرز الفلاسفة إثارة للخلاف في ميدان فلسفة العلم وهو من أكثر الفلاسفة الذين لقوا ردود فعل مختلفة ومتباينة في تاريخ الفلسفة كلها، فقد نال الثناء فامتدحه

1- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص175.

2- بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، مصدر سابق، ص17.

3- P Feyerabend, Adieu la raison op.cit, p339.

4- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص ص171،170.

البعض لتميز أفكاره وأطروحاته، باعتباره فيلسوفا مجددا له رؤية ثاقبة في فلسفة العلم المعاصرة.[1]

كما يعتبر "فيرابند" أحد المنظرين لفلسفة العلم الذي أثرى هذا الفرع الهام في الفلسفة، على مدى مسيرته المهنية، وبصفة استثنائية تحدى "فيرابند" الكثير من الدوغمائيات الفلسفية والعلمية، وساجل ضد كل التصورات والافتراضات العقائدية حيثما وجدها، مدافعا عن أفكاره متحديا بذلك معاصريه، فرفض الخضوع للإيديولوجيات السائدة في عصره، لأنه يتبنى أفكارا وآراء مخالفة لما هو سائد.[2]

وإنه وفي الوقت الذي كانت مدرسة فرانكفورت، تركز بشكل أساسي على النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية للحضارة الغربية فإن "فيرابند" ركز أكثر على البعد الإبستيمولوجي، أي نقد العلم الغربي وهيمنته على المعرفة والتفكير، وبالطبع فإن النقد الفلسفي لهذه الحضارة لم يقتصر على هذين الجانبين فقط، بل امتد ليشمل جوانب أخرى مثل الثقافة والسياسة والاقتصاد، وذلك بسبب الدور الهام والحاسم الذي يلعبه العلم في الحياة الإنسانية اليوم بجميع جوانبها.[3]

وقد أثارت أطروحة "فيرابند" جدلاً واسعاً بين فلاسفة العلم والميثودولوجيين، حيث رفضها البعض لاكتفائها بتقويض العلم والعقلانية، دون المساهمة في حل المشكلات النظرية والمنهجية التي يطرحها العلم المعاصر. بينما اعتبرها آخرون تحولاً جديداً في مسار فلسفة العلم المعاصر، طالما أنه ينبذ كل أشكال الدوغمائية التي سادت في البحث الإبستمولوجي، ويعتمد على الوعي التاريخي بالعلم ويصف "فيرابند" هذا التحول بأنه «وضع المسمار الأخير في نعش النظرة اللاتاريخية للعلم، وأشار إلى أنه جعل الوعي التاريخي بالعلم ينطلق بحرية لا تحدها حدود».[4]

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص5.

2- بول فيرابند، طغيان العلم، مقدمة المحرر، مصدر سابق، ص18.

3- يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص420.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إن الدارس لتاريخ العلم والمتفحص لكل الحقب التاريخية التي أعقبت التطور العلمي يجد بأن الثورات العلمية الكبرى التي قامت بانتهاك العقلانية السائدة شكلت بداية لإعادة بناء عقلانية جديدة، توصف بأنها لا عقلانية فقط بالنسبة للبراديغم السابق، لكن سرعان ما تتحول إلى عقلانية راسخة في الفكر.[1]

إنه وعلى الرغم من أن تاريخ العلم كان الأداة التي سعى "فييرابند" من خلالها لتحقيق مشروعه الإبستمولوجي، إلا أن تحليله لتاريخ العلم اعتمد بشكل رئيسي على الجانب الوصفي الانتقائي، وأغفل الجوانب الأخرى. فقد استند إلى بعض الشواهد التاريخية وجعلها الأساس في بناء تصوره للمشروع العلمي، بهدف إثبات أن العلم مشروعٌ فوضوي يقوم على انتهاك مبادئ وقواعد العلم التقليدي للعقلانية السائدة.[2]

وهذا ليس لأن تلك الثورات عملت على اختراق الأسس العقلانية السائدة، بل لأنها فرضت نفسها على الفكر باعتبارها نموذجاً عقلياً قام بتصحيح مسار الفكر البشري وأحرز نجاحات واسعة ويخبرنا تاريخ العلم بأن عقلانية مركزية الشمس التي ابتدعها "كوبرنيكوس" لم تثبت نجاحها لأنها وقفت موقفًا لا عقلانيًا من عقلانية مركزية الأرض، بل كاد يكلفها موقفها اللاعقلاني الكثير، ولكنها أثبتت نجاحها لأنها صححت إحداثيات النظر إلى الخريطة الفلكية.

وبالتالي إحداثيات النظرة العقلانية، وحققت هذه العقلانية انتشارًا واسعًا، وفتحت المجال لكل من "كيبلر" و"غاليلي" وصولا إلى "نيوتن" بإحداث تحولات هامة في العلم، كما كانت الدافع لسير البحث العلمي نحو آفاق جديدة، تتوافق مع تطلعات التقدم العلمي، كما أن اللحظات التاريخية التي اتخذ فيها العلم موقفًا لا عقلانيًا في حقيقة الأمر ما هو إلا تكريس لعقلانية جديدة قامت على أنقاض العقلانية السائدة.[3]

ولم يكلّف "فيرابند" نفسه بإجراء مقارنة بين العلم وباقي الأنظمة المعرفية المسماة لدى البعض بـ "اللاعلمية" بل أعطى الأفضلية لهذه الأخيرة على العلم وهذا لا يتناسب مع إحدى

1- كريم موسى، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص415.
2- المرجع نفسه، ص ص411،412.
3- المرجع نفسه، ص412.

المنطلقات أو الأفكار التي يقوم عليها تصوره للعلم، ونعني بذلك فكرة اللامقايسة فهذه التقاليد غير قابلة للقياس المتكافئ فهو يخالف المبدأ الذي سلم به.[1]

وفي إطار اللامقايسة ذهب "فيرابند" إلى القول بالمعنى المتغير جذريا ذلك لأن دلالة المفاهيم وتأويلها تعود إلى السياق النظري الذي وردت فيه. فيصبح كل عالم من العلماء معزولاً عن غيره، وسيعيش في نسق من المعاني التي كوّنها لنفسه وإذن تكون المعاني مختلفة بين العلماء في الحقبة العلمية الواحدة.[2]

لقد أشار "فيرابند" إلى أنه من الصعب إنشاء نسق علمي واحد يجمع بين النظريات العلمية ويوحد الفهم الإنساني وذلك لأن معاني ودلالات المفاهيم العلمية تتعدد، مما يجعل من الصعب وجود معنى واحد للحد العلمي. هذا الأمر يجعل النظريات العلمية نسقًا مغلقًا لا يتحكم فيه التواصل والتفاعل بينها. وعلى الرغم من أهمية القواعد المنطقية في العلم، إلا أن "فيرابند" يرفض محاولات عقلنة العلم معتبرًا أن ذلك يعيق التقدم العلمي.[3]

كما يعتبر أن النقد الذي يوجهه للأطروحات الإبستيمولوجية وللميتودولوجيات البحثية القائمة لا مبرر له، حيث أن كل أطروحة إستيمولوجية تحمل بعض النقائص نظرًا لأن العلم ليس مشروعًا مكتمل البناء، إذ يجب علينا فهم تلك الحقيقة. فلا يمكن التغاضي عن مقاربات البحث والتحليل اللغوي والمنطقي، ووجب قبول جميع النظريات المختلفة.[4]

انتقد الكثيرون فلسفة "فيرابند" واعتبروه عدوا للعلم، فرفضوا تصوراته لأنه في نظرهم ليس إلا مشعوذا يدعو إلى الظلام والتخلف، وكان السبب في ذلك نزعته السلبية وانتقاداته اللاذعة، فهو يتردد كثيرا ويعارض أفكاره التي صرح بها من قبل، ويصف نفسه بصفات ثم يتراجع عنها، فأحيانا نراه يقول بأنه "فوضوي"، وأحيانا أخرى "نسبي"، ثم يتراجع ويصرح بأنه لا هذا ولا ذاك

1- آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص142.

2- حمدان بوصالحيح، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص54.

3- عادل عوض، منطق النظرية العلمية المعاصر وعلاقتها بالواقع التجريبي، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006، ص320.

4- عادل عوض، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004، ص265.

ويدافع من جهة على علم التنجيم، ثم يتراجع ليقول أن أكثر ما يشعره بالملل هو التجيم، ولهذا يصعب علينا فهم فلسفته، ولا يمكن تصنيفه لأي فكر ينتمي لأن معظم مؤلفاته لا يستقر فيها على مبدأ معين أو فكرة،[1] ونستوضح ذلك من خلال محرر أحد مؤلفاته «إن تغير موقفه الدائم ولهجته الحادة واستعماله المفرط للنقد الشديد، قد زاد من سوء تفسير فلسفته وبالفعل فقد أسيء استخدام جوانب فردية من فلسفته كثيرا من قبل الذين يستبدلون طغيانا بطغيان آخر، بدلا من حماية التقدم من القمع المثبط الذي تمارسه الأيديولوجيات العقائدية» .[2]

إن رفض "فيرابند" للعقلانية العلمية في إنشاء النظريات العلمية قائم على تعسف كبير، إذ جعل الأحكام العلمية في مرتبة التقدم والتراجع غالبا ما تكون عشوائية، وبالتالي فإن كل المعارف تكون في منزلة واحدة وهذا مخالف للأمانة العلمية والمعرفية، فمن الصعوبة بمكان حد الاستحالة وضع العلم في منزلة واحدة مع السحر والأسطورة.[3]

كما أن الفوضوية المقترحة كعلاج لأمراض الإبستيمولوجيا تزيد من أزمتها بسبب موقفه المخرب لفكرة تقدم العلم من خلال إقحام التقاليد اللامعقولة كالسحر والشعوذة والأسطورة، فالفوضوية تقضي على الانسجام بين المحيط والحياة، ويؤكد ذلك "لاكاتوس" بقوله: «إن الفوضوية الإبستيمولوجية في النهاية سخافة ويتساءل: أين هو الفوضوي الإبستيمولوجي الذي يخرج من العمارة عبر النافذة في الطابق الخمسين عوض استعمال المصعد لمجرد روح المناقضة الخالصة لديه...» .[4]

لقد سعى "فيرابند" يسعى لتحرير الإنسان من القيود المنهجية والسياسية، لكنه قد يعرض هذه التعددية للخطر، إذا لم يتم التعامل معها بحذر، فالقول بأن "كل شيء حسن" يعني عمليًا استمرار الأوضاع على ما هي عليه، حيث لم يضع "فيرابند" حدودًا للحرية التي منحها للفرد. هذه الحرية المطلقة تؤدي إلى تصادم وتصارع بين حريات الأفراد، كما أن شعار (كل شيء

1- بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص ص5- 24.

2- بول فيرابند، طغيان العلم، مقدمة المحرر، مصدر سابق، ص ص20، 21.

3- شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص241.

4- جون فرانسوا دورتيي وآخرون، فلسفات عصرنا...، مرجع سابق، ص327.

حسن) يمكن استغلاله سياسيا ليكفل للسلطة بقاء سيطرتها دون السعي إلى تغيير الواقع وإذا ما تم اعتماد هذا الشعار في مجال العلم، فإنه يصبح خاضعًا للعشوائية والفوضى، مما يؤدي إلى تمييع الأشياء وتسكينها.[1]

وكما لا ينكر "فيرابند" دور العلم في تحرير الفكر البشري من الرجعية والتبعية، فقد كان العلم عنصراً فعالاً في الحياة الإنسانية، وأصبح أداة تمكن من فرض الوجود الإنساني خاصة في ظل التطور العلمي والتقني. إلا أن العلم تحول إلى إيديولوجيا قامعة لحرية الأفراد، وأصبح عاملاً حاسماً في فرض الهيمنة الغربية لهذا يرفض "فيرابند" السلطة العلمية، بل حاول تقويض العلم والمركزية الغربية برمتها.[2]

وهنا، نجد أن "شالمر" يتفق مع "فيرابند" في محاربة الاستخدام غير المشروع للعلم وللمنهج العلمي، إلا أن "شالمرز" يعارض ردود الفعل المتطرفة، الفردية والنزعة النسبية تجاه إيديولوجية العلم فليس صحيحاً أن أي وجهة نظر هي حسنة كأي وجهة نظر أخرى صحيح أن العلم أصبح أداة للقمع والاستعمار وسلب حريات المجتمعات، وهذا ما يجب أن نرفضه في العلم، لكن هذا ليس مبرراً لجعله مساوياً لضروب المعرفة الأخرى. لقد اكتسب العلم مكانته من خلال مصداقية نتائجه وموضوعيتها، وإسهامه في تطوير الفكر الإنساني، وما قدمه العلم، لا يمكن مقارنته ومعادلته أبداً بما قدمته الأنظمة المعرفية الأخرى.[3]

رغم كل هذه الانتقادات الموجهة للفوضوية الفيرابندية إلا أن مصطلح "الفوضوي " الذي جاء به "فيرابند" قد لا يكون جذابا للكثير من السياسيين والعلماء وحتى الإنسان المثقف العادي، إلا أنه يمثل دواء ناجحا لنظرية المعرفة العلمية، لتتخلص من قيودها وعراقيلها التي وضعها فلاسفة العلم، حيث يقول أحدهم: «إننا أمام علم جديد يسمى بالفوضوية أو بالأحرى أمام وسائل تمكننا من أن نفهم بطريقة أفضل، وفي إطار مختلف العلوم...» .[4]

1- آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص145.

2- موسى كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص411.

3- آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص169.

4- خالد قطب، التعددية المنهجية في فلسفة العلم، مرجع سابق، ص40.

ويتمثل التميز والإبداع في فلسفة "فيرابند" في نقله لمصطلح "الفوضوية" من فلسفة السياسة إلى فلسفة العلم والإبستيمولوجيا، هذا المصطلح أدرجه "فيرابند" ضمن المصطلحات الفلسفية، ليتحرر من كل القيود التي يخضع لها العلم، سواء كانت علمية أو اجتماعية للوصول إلى حياة كاملة.[1]

وعلى إثر أعمال "فيرابند"، فإن هذه المقاربة النسبية قد اعتمدت على فكرة أن المعرفة العلمية تعمل بناءً على اتفاق بين العلماء بدلاً من الاعتماد فقط على الظواهر والأدلة التي لا يمكن نفيها. وبالتالي، فإن هذه المقاربة تقر بتأثير العوامل الاجتماعية في تطوير النظريات والمفاهيم العلمية، مما أسهم في أنسنة الظاهرة العلمية،[2] فالعلم هو إبداع إنساني ولا يمكن فهمه بشكل كامل دون النظر إلى الأبعاد الاجتماعية التي شكلته.

ولقد حاول "فيرابند"من خلال أطروحته في فلسفة العلم أن يحطم ذلك التصور الذي يجعل من العلم كيانا مقدسا، وأثبت أن العلم الذي كان وسيلة للتفتح، أصبح الآن أداة للاستبداد عندما أصبح يمثل إيديولوجيا، ومنه تحول "فيرابند" من فيلسوف إلى فيلسوف إنساني، حين وضع كرامة الإنسان في صميم اهتمامه، وكان هدفه استرجاع الجانب الروحي في الإنسان، الذي غلبه الميدان العلمي، فأعاد الاعتبار لكل المعارف الإنسانية رافضا الإعلاء من قيمة العلم على حساب الإنسان.[3]

1- خالد قطب، التعددية المنهجية في فلسفة العلم، مرجع سابق، ص40.

2- جون فرانسوا دورتيي وآخرون، فلسفات عصرنا...، مرجع سابق، ص326.

3- حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فايرابند، مرجع سابق، ص294.

خلاصة الفصل:

في ختام هذا الفصل نستخلص أن المقاربة الفوضوية التي قدمها بول "فيرابند"، تمثل تحولًا جذريًا في فهمنا للواقع الاجتماعي، من خلال تركيزها على الوعي الفردي والتفاعلات الاجتماعية، وتحرير العلم من القيود التقليدية، تسعى هذه المقاربة إلى تقديم نظرة أكثر شمولية ومرونة في دراسة العلم كظاهرة اجتماعية.

لقد أظهرنا كيف أن "فيرابند" ينتقد المنهج التقليدي، ويدعو إلى غزارة النظريات والتوجه التشابكي، كسبيل لتحقيق فهم أعمق وأشمل للمجتمع. كما تناولنا العلاقة المعقدة بين العلم والسلطة، وأهمية انتقاء العلم في تشكيل وجهات النظر واتخاذ القرارات.

وبالرغم من الفوائد العديدة التي تقدمها المقاربة الفوضوية، إلا أن لها حدودها وتحدياتها. فهي تتطلب مرونة فكرية واستعدادًا لتقبل التغيير والتنوع في النظريات والمناهج. كما أن تطبيقها قد يواجه مقاومة من قبل النظم التقليدية والمؤسسات، التي قد ترى في هذا النهج تهديدًا لاستقرارها.

ومع ذلك تبقى المقاربة الفوضوية مفتوحة على آفاق مستقبلية واسعة، في مجال فلسفة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مما يعزز من قدرتنا على تحليل وفهم الظواهر الإنسانية، وبالجملة الثقافية بطرق جديدة ومبتكرة، ومن خلال تبني هذه المنهجية يمكن للباحثين استكشاف مجالات جديدة وإيجاد حلول مبتكرة للتحديات الاجتماعية المعاصرة، التي يمثل فيها العلم وضعا تهديديا بما يستوجب المراقبة والحذر، فضلا عن مواصلة النقد، والترحيب بفاعليات إنسانية أخرى، وختامًا، يمثل طرح "فيرابند" دعوة للتفكير النقدي والتحرر من القيود، مما يمكّن العلماء والباحثين من الإبداع والابتكار في سعيهم لفهم المجتمع، بمختلف ظواهره من أجل إحداث التغيير الإيجابي فيه.

خاتمة

خاتمــة:

لقد قادني البحث حول (النزعة الفوضوية عند "بول فيرابند") إلى جملة من النتائج، يمكن تلخيصها في النقاط الأساسية التالية:

لقد قدّم "بول فيرابند" تصورا جديدا في الوسط الفلسفي العلمي، حيث تميز بجرأة مواقفه ومناهضته للعقلانية العلمية التقليدية، فمن خلال مشروعه الإبستيمولوجي سعى "فيرابند" إلى إلغاء الحدود التي رسمتها الميتودولوجيات التقليدية، ورفض وجود منهجية محددة للعلم، متبنياً الفوضوية كطريق جديد لتفسير تقدم المعرفة العلمية، ودعا إلى التعددية في المناهج، حيث اعتبر أن الوقائع العلمية متنوعة ومعقدة، بحيث لا يمكن لمنهج واحد الإحاطة بها، مما جعل الممارسة العلمية أكثر انفتاحا، ومنح الحرية التامة للعلماء، داعيا إياهم إلى التحرر من قيود المنهج وأغلاله.

لقد أسس "فيرابند" لنظرية جديدة في المعرفة، وهي "الفوضوية الإبستيمولوجية"، ولا تعني الفوضوية الفوضى أو العشوائية، وإنما المعنى الذي أراده "فيرابند" لهذا المصطلح الجديد في فلسفة العلم، هو عدم التقيد بقوانين العقل ومعايير العقلانية، ومن تم، التفتح على كل الخيارات والبدائل النظرية والمنهجية، فالعلم كما يراه "فيرابند" يتسم بـ "لا عقلانية" أكثر.

كما أن دعوته إلى "اللامنهج"، لا تعني أنه ينفي المنهج مطلقا، وإنما يقصد عدم وجود منهج علمي محدد كلي وتاريخي، وعدم وجود مبادئ وقواعد أو شروط مسبقة ثابتة ونهائية تحدد مسيرة العلم، فقواعد وإجراءات البحث العلمي تتحدد بظروف وأهلية البحث ذاته، فالعلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث، وليس لاتباع قواعد محددة، وهذا مفاده أنه يرفض فكرة استخدام منهج واحد ووحيد تسير وفقه العلوم، لأنه يعتقد أن جميع المناهج لها قيمتها، وذات فائدة، للمشاكل المطروحة أمام العلم.

إن دعوته للفوضوية المنهجية والتعددية المعرفية يدل على نسبية المعرفة العلمية، فالمعرفة في نظره نسبية لأن العقل الإنساني لا يحيط بكل شيء، فليس كل ما يطرحه العلم

متاحا، وكل ما يوجد بين أيدينا هو عبارة عن وجهات نظر متنوعة، قد تكون صادقة من بعض الجهات فقط.

كما يرى "فيرابند" أن العلم يقوم على التنوع والتعدد في النظريات العلمية، فكل نظرية سواء كانت قديمة أو جديدة، علمية أو غير علمية، لديها القدرة على إثبات مدى فعاليتها، إذا قام العلماء بإعطاء فرصة لها من أجل إثبات نفسها في المجال العلمي.

إن العلم في نظر "فيرابند" لا يمثل أرقى أشكال المعرفة، فالمفاهيم التقليدية كالعقلنة والاستدلال والموضوعية، التي منحت العلم صفة التميز، قد استنفدت الغرض الذي وضعت من أجله وأصبحت عديمة الجدوى، في ظل دعاوى لفلسفات مفتوحة، فرضها واقع الممارسة العلمية.

هذا ويعد "فيرابند" نموذجا لسيادة الروح النقدية في فلسفة العلم، فقد كان النقد لب فلسفته ومحورها الأساسي، الذي اعتمد عليه في تناوله لقضية المنهج والعلم واللاعلم، حيث قام بنقد كل العقلانيات العلمية المعاصرة، بمختلف أجنحتها وتوجهاتها.

لقد تميزت فلسفة "فيرابند" بنزعة إنسانية راقية، حيث سعى إلى أنسنة الظاهرة العلمية، ودعا إلى حرية الفرد والتعددية، واحترام التنوع الثقافي، وتثمين كل صنائع الإنسان وخبراته. كما منح قيمة لكل النشاطات الإنسانية، أيا كانت، رافضا فكرة تقديس العلم وامتيازه، بذريعة تمتعه بالخطاب العقلاني، مؤكدا على أن العلم نشاط إنساني بالدرجة الأولى، ويتفاعل باستمرار مع مختلف المعارف الإنسانية الأخرى.

هذا وقد استوقفتنا مقاربته التي التمسنا فيها شيئا من الأصالة والإبداع، حيث نقل مجال البحث من التساؤل عن المنهج الأصلح للعلم إلى جدوى وأهمية استغلال كل ما أنتجه الإنسان من علوم وصنائع، وبالجملة، معارف وثقافات، في خدمة المشروع العلمي، معيدا الاعتبار لكل أشكال المعارف والفعاليات الإنسانية، حتى القديمة منها.

وفي الأخير، لا يسعنا إلا أن نقول بأن الإبستيمولوجيا الفوضوية قد أثارت جدلا واسعا بين فلاسفة العلم، نتيجة لتضارب المواقف حولها، فقد رفضها البعض، لأنها عملت على

تقويض العلم والعقلانية دون إعطاء حلول للمشكلات العلمية، لكن بالرغم من الانتقادات الموجهة لها، إلا أنه لا يمكن إنكار محاولتها في إضفاء قيمة جديدة على العلم والفلسفة تتوافق مع البعد الإنساني، وتعيد إحياء جوانب غيبتها الدراسات التاريخية للعلم، كما أنها فتحت فضاء للتعدد المنهجي، وحاولت التخفيف من شدة الاختلاف والصراع بين أفراد المجتمع الإنساني، وذلك باستيعاب هذا الاختلاف والإقرار بحق الآخر في الاختلاف المعرفي، في ظل يتسع لكافة التقاليد المعرفية الإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا. المصادر:

أ. العربية:

1. فيرابند (بول)، العلم في مجتمع حر، ترجمة: السيد نفادي، مراجعة سمير حنا صادق، المشروع القومي للترجمة، (د ط)، 2000.

2. فيرابند (بول)، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، (د ت).

3. فيرابند (بول)، طغيان العلم، ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟، ترجمة مركز دلائل مراجعة عبد الله الشهري، المملكة العربية السعودية، ط1، 2017.

4. فيرابند (بول)، كيف ندافع عن المجتمع ضد العلم، في: "الثورات العلمية"، تحرير إيان هاكينج، ترجمة وتقديم: السيد نفادي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1996.

ب. الأجنبية:

1.Feyerabend (Paul), contre la méthode esquisse d’une théorie anarchiste de la connaissance, traduit de l’anglais par Baudouin Jurdant et Agnès Schlumberger, éditions du seuil, Paris, 1989.

2.Feyerabend (Paul), Adieu la raison, Traduit par Baudouin Jurdant, Edition du seuil, Paris, 1996.

ثانيا. قائمة المراجع:

1. إبراهيم (مصطفى)، في فلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2000.

2. أفلاطون، محاورة تياتيثوس أو عن العلم، ترجمة: أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.

3. آل ياسين (جعفر)، فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1975.

4. الأهواني (أحمد فؤاد)، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م.

5. بدوي (عبد الرحمان)، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، شارع فهد سالم، الكويت، ط3، 1977.

6. بدوي (عبد الرحمان)، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، شارع فهد سالم، الكويت، ط3، 1977.

7. البعزاتي (بناصر)، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2007.

8. بوبر (كارل)، أسطورة الإطار، في دفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 292، جانفي، 1978

9. بوبر (كارل)، منطق الكشف العلمي، ترجمة: ماهر عبد القدر محمد علي، دار النهضة، بيروت، 1986.

10. الخولي (يمنى طريف)، مفهوم المنهج العلمي، مؤسسة الهنداوي، (د، ت)،(د، ب)، 2015.

11. الخولي (يمنى طريف)، فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.

12. دورتيي (جون فرانسوا)، فلسفات عصرنا، تياراتها، مذاهبها، أعلامها، قضاياها، ترجمة: إبراهيم صحرواي، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط1، 2009.

13. روزنبرج (أليكس)، فلسفة العلم مقدمة معاصرة، ترجمة: أحمد عبد الله السماحي وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2019.

14. السيد (محمد أحمد)، التميز بين العلم والإعلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1996.

15. شالمرز (آلان)، نظريات العلم، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، (د ت).

16. الطاهر وعزيز، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1990.

17. عبد الصمد (محمد)، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 2019.

18. عوض (عادل)، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004.

19. عوض (عادل)، منطق النظرية العلمية المعاصر وعلاقتها بالواقع التجريبي، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006.

20. غلاب (محمد)، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر، القاهرة، ط1، 2020.

21. فاينِرت (فريدل)، كوبرنيكوس وداروين وفرويد، ثورات في تاريخِ وفلسفةِ العلم، مؤسسة الهنداوي للنشر والتوزيع، 2021.

22. قاسم (محمد محمد)، كارل بوبر نظرية المعرفة ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1986

23. قطب (خالد)، التعددية المنهجية، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 2008. كتنغهام (جون) العقلانية، فلسفة متجددة، ترجمة: محمود منفذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 1997.

24. كريم (موسى)، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012.

25. كون (توماس) وآخرون، مقالات نقدية في تركيب الثروات العلمية، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد علي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000.

26. كون (توماس)، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 1992.

27. متى (كريم)، الفلسفة اليونانية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971.

28. محمد علي (ماهر عبد القادر)، فلسفة العلوم المشكلات المعرفية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط2، 2000.

29. محمد يوسف (فاطمة يونس)، فلسفة العلم عند كارل بوبر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2015.

30. مشقف (الطاهر)، مناهضة المنهج عند بول فيرابند، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2005-2006، ص09.

31. موران (أدغار)، من أجل عقل متفتح، نقلا عن محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، العقلانية وانتقاداتها، دار توبقال دار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.

32. النشار (مصطفى حسن)، فلاسفة أيقظوا العالم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1998.

33. النويهى (سهام)، تطور المعرفة العلمية، مقال في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988.

34. هشام محمد (ناصر)، مدخل إلى فلسفة العلوم، دار الجوهرة، القاهرة، ط1، 2015.

35. يوسف (ابن أحمد)، تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلوطين ويرقلس، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 2020.

ثالثا. الأطروحات والمذكرات:

1. بوصالحيح (حمدان)، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، بول فيرابند نموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014.

2. هري (علي)، البرمجة عند "إمري الكاتوش"، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة، جامعة قسنطينة، 2007-2008.

3. هواري (شادلي)، إشكالية تطور وأزمة المنهج، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير، كلية العلوم الإجتماعية، جامعة وهران، 2010-2011.

4. هواري (شادلي)، فلسفة اللامعقول عند فيرابند، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2017-2018.

رابعا. الموسوعات والمعاجم:

1. الحاج (كميل)، الموسوعة الميسرة، في: "الفكر الفلسفي والاجتماعي"، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 2000.

2. لالاند (أندري)، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الأول، ترجمة خليل أحمد خليل، ط2، 2001

3. صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، الشركة العالمية للنشر، بيروت، 1979.

4. صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني من (ط) إلى (ي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

5. طرابيشي (جورج)، معجم الفلسفة، دار الطليعة بيروت، ط3، 2006.

6. لالاند (أندري)، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: أحمد خليل أحمد، الجزء الثاني، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 2001.

7. م. وب. يودين (روزنتال)، الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيات، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط6، (د ت).

8. وهبة (مراد)، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007.

سادسا. المجلات والدوريات:

1. أحمد (مزراق سيد)، اللامنطوق في فلسفة "بول فيرابند"، في: "مجلة التدوين"، جامعة وهران (2) محمد بن أحمد، المجلد التاسع، العدد الأول، 2017.

2. بن ولهة (توفيق)، مقالة في اللامنهج مقاربة بول فيرابند، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد 16، العدد 02، جامعة سطيف2، الجزائر، 2019.

3. الزهرة (بوعلام)، الإبستمولوجية الفوضوية عند بول فيرا بند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم، في: "مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية"، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، المجلد العاشر، العدد الثاني، 2022.

4. العالم (عبد الحميد)، "إشكالية المنهج في الفلسفة المعاصرة من الأحادية إلى الفوضوية بول فيرابند نموذجا"، في: "مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية"، المجلد 12، العدد 1، الجزائر، 2024.

5. محمد المحجوب (مريم الصادق)، بروتاجوراس والنزعة الإنسانية، في: "مجلة رواق الحكمة"، جامعة الزاوية، ليبيا، العدد الثالث، 2018.

6. مشاط (حياة)، الظاهرة العلمية عند بول فيرابند، في: "مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية"، مج 3، ع1، جامعة حسيبة بوعلي، الشلف، الجزائر، 2021

7. نفادي (السيد)، إتجاهات جديدة في فلسفة العلم، في: "مجلة عالم الفكر"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مجلد 25، العدد الثاني، الكويت، 1996.

8. هواري (الشاذلي)، فيرابند الشخصية وفلسفة اللامعقول في: "مجلة متون"، العدد الثاني، المجلد التاسع، سعيدة، الجزائر، جوان 2017.

سابعا. المواقع الإلكترونية:

1. https://aawsat.com/home/article.

فهرس المحتويات

قائمة المحتويات	رقم الصفحة
بسملة	
شكر وعرفان	
إهداء	
مقدمة	أ – ز
الفصل الأول: الخلفيات المغذية للطرح الفوضوي، وكيفية تفاعل "فيرابند" معها	
تمهيد	**01**
أولا: النزعة النسبية عند اليونان (بروتاغوراس نموذجا)	**01**
أ. مفهوم النسبية	**01**
ب. النسبية عند بروتاغوراس	**02**
ثانيا: فيرابند مساجلا الوضعية المنطقية ومتحاملا عليها	**08**
ثالثا: فيرابند والتكذيبية: من الإعجاب إلى النبذ والتجاوز	**12**
رابعا: الحركة الدادئية	**18**
خامسا: فيرابند محتفيا بـ "لاكاتوس" وناقدا برامجيته	**21**
سادسا: باراديغميات "توماس كون" بين ترحيب "فيرابند" وانتقاده الحاد	**28**
خلاصة الفصل الأول	**32**
الفصل الثاني: المقاربة الفوضوية عند "بول فيرابند"	
تمهيد	**34**
أولا: مناهضة المنهج	**34**
أ. مفهوم المنهج	**34**
ب. التعددية المنهجية	**37**
ثانيا: الدفاع عن وفرة النظريات	**41**
أ. مفهوم النظرية العلمية عند "فيرابند"	**41**
ب. مبادئ النظرية العلمية عند "فيرابند"	**43**

ب.1. مبدأ وفرة النظريات	**43**
ب.2. مبدأ اللامقايسة	**48**
ثالثا: التوجه النسباوي عند "بول فيرابند"	**50**
رابعا: المعرفة العلمية والنشاطات الأخرى (أو انتقاد العلم وسلطته)	**55**
خامسا: حدود المقاربة الفيرابندية وآفاقها	**64**
خلاصة الفصل الثاني	**71**
خاتمة	**75-73**
قائمة المصادر المراجع	
فهرس المحتويات	
ملخص الدراسة	

الملخص

الملخص:

تتمحور هذه الدراسة حول إلقاء الضوء على التحليل الذي قدّمه "بول فيرابند" للظاهرة العلمية، من خلال نظريته "الفوضوية الإبستمولوجية" التي أثارت جدلاً كبيرًا في الوسط الفلسفي العلمي. وهي تسلط الضوء على كيفية تقديم "فيرابند" لتحليله للظاهرة العلمية، من خلال نظريته الفوضوية، وقد تسبب نظريته في إثارة جدل كبير في الوسط الفلسفي والعلمي، حيث أنها قوضت أحد أهم المفاهيم في المعرفة العلمية ألا وهو مفهوم المنهج العلمي، ورفضت وجود منهج واحد للعلم بسبب تنوع المناهج المتاحة. كما أشارت إلى كيفية سعي "فيرابند" للقضاء على سطوة العلم وهيمنته على الإنسان، حيث رفض تمييز العلم عن باقي المعارف الإنسانية، مرتئيا أن العلم هو مجرد إنتاج إنساني، يتفاعل مع مختلف صنائع الإنسان ولفت أيضا إلى أن العلم المعاصر في نظره صار أيديولوجية أدت إلى تقييد حرية الإنسان، مما جعل "فيرابند" يسعى محاولا تحرير الإنسان من هذه العبودية الجديدة من خلال إعادة الاعتبار لجميع المعارف الإنسانية. علاوة على أن الفلسفة الفيرابندية تجسد أحسن تعبير عن نزعة إنسانية راقية، وتميزت بفتح آفاق واستبصارات جديدة في دراسة الظاهرة العلمية.

الكلمات المفتاحية: العلم، المنهج العلمي، النزعة الفوضوية، النزعة النسبية، بول فيرابند.

Abstract

This study revolves around shedding light on the analysis presented by Paul "Feyerabend" of the scientific phenomenon, through his theory of "epistemological anarchism," which sparked significant controversy in the scientific philosophical community. It highlights how Feyerabend presents his analysis of the scientific phenomenon through his anarchistic theory, which has caused considerable debate in the philosophical and scientific community, as it undermined one of the most important concepts in scientific knowledge, namely the concept of the scientific method, and rejected the existence of a single method for science due to the diversity of available approaches. It also points out how Feyerabend seeks to overthrow the dominance of science and its control over humanity, by refusing to distinguish science from other human knowledge, considering science as merely a human product that interacts with various human activities. He also noted that contemporary science, in his view, has become ideological, leading to the restriction of human freedom, prompting Feyerabend to seek to liberate humanity from this new form of slavery by restoring the value of all human knowledge. Furthermore, Feyerabendian philosophy embodies the finest expression of a noble human tendency and is distinguished by opening up new horizons and insights into the study of the scientific phenomenon.

Key words: Science, Scientific Method, Anarchism, Relativism, Paul Feyerabend